

مجلة جامعة
تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

المدير
توفيق عمروني

رئيس التحرير
عز الدين رمضاني

أعضاء التحرير:
عمر الحاج مسعود
عثمان عيسي
نجيب جلواح

التصميم والإخراج الفني
دار الفضيلة للنشر والتوزيع

أيُّها القرَّاء الكرام
نرحِّب بكلِّ مقالٍ علميٍّ مفيد
ونسعَد بكلِّ نَقْدٍ هادفٍ سديدٍ.

فمجلة «**الإصلاح**»
وسيلة لنشر العلم النَّافع

للمراسلات:
دار الفضيلة للنشر والتوزيع
حي دوزي، قطعة (٠١)، رقم (٠٦) باب الزوار ـ الجزائر
ص ب ٢٢ مكرر ـ ١٦٠٢٧
الهاتف والفاكس: ٦٣ ٩٤ ٥١ (٠٢١)

للمراسلات الإلكترونية:
darelfadhila@maktoob.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ بالله مِنْ شرورِ أنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ في النَّارِ.

اقرأ في هذا العدد...

افتتاحية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين، وبعد:

لقد منَّ اللهُ علينا مَع مَطلعِ العامِ الجديدِ ١٤٢٨هـ إذ وُفِّقنا إلى إصدَارِ العَددِ الأوَّلِ من مجلةِ «الإصلاحِ» الَّتي نأملُ أن يكون اسمُها دليلاً على مَضمُونها، وظَاهرُها دليلاً على باطنِها؛ ففيها الدَّعوةُ إلى إصلاحِ ما فَسَد، وتَقْويمِ ما اعوجَّ، ودَعوةُ النّاسِ إلى الاعتِصَامِ بالكتَابِ وَالسُّنَّةِ على فَهمِ سَلفِ الأُمَّةِ.

هَذه المجلَّةُ الَّتي كانتْ أُمنيةً في النُّفوسِ، ورغبةً في الضّمائرِ، وهمًّا مُعتلَجًا في القُلوبِ أصبَحتِ اليومَ حقيقةً واقعةً، وأمرًا مُشاهدًا ملموسًا لا مِريةَ فيهِ، فظهَرتْ بعدَ طُولِ انتظارٍ وأَسفَرتْ عَن وجْهِهَا بعدَ عَناءٍ واصطبَارٍ في حُلَّةٍ قَشِيبةٍ وصُورةٍ جميلةٍ، والَّذي زادَ في رَونقِها وسَما بجَمالِها هي مقالاتٌ وكِتاباتٌ دَبَّجَتها يَراعُ مَشايخنا النُّبَلاءِ وطلبَةُ العلمِ النُّجَباءِ على صفَحاتها الغرَّاءِ، تَطبيقًا لمَا يُمليهِ عليْهم وَاجبُ الدِّيَانَةِ منَ الدَّعوةِ إلى اللهِ وهِدايةِ الخلقِ بأُسلُوبٍ علميٍّ أصِيلٍ، على مُقتضَى قَولِ اللهِ جلَّ ذكْرُهُ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾.

وإنَّ الأملَ معقُودٌ على أن تكونَ المجَلَّةُ منبرًا يتَناوبُ عليهِ حَمَلةُ العلمِ الصَّحيحِ والقلَمِ السَّويِّ، لإيصالِ النّفعِ والخيرِ إلى جميعِ الأطرافِ، ولِرفعِ صوتِ الحقِّ عاليًا خفَّاقًا على أرجاءِ هذا البلدِ العزيزِ، في وسَط هذا الزَّخمِ الإعلامِيِّ الرَّهيبِ الَّذي ينحدرُ علَينَا من كلِّ جهةٍ وصَوْبٍ فيخْلِبُ العقُولَ، ويُذهِلُ الأبصارَ، ويَلْتَهِم الأوقاتَ والأَعمارَ، ويحملُ في جَنَباتِه سَيْلا عَرِمًا من أنواعِ الشَّهواتِ والشُّبُهاتِ، فلا يثبُتُ أمامَها إلا من ثبَّتَه اللهُ بعلمٍ صحيحٍ يدفعُ به الشُّبهاتِ، وصَبرٍ جميلٍ يواجِهُ به الشَّهواتِ. كما نَأمَلُ أن تكونَ هذهِ المجلَّةُ سببًا في تَوثيقِ عُرى الإخَاءِ والوِدادِ، ونَبذِ أسبَابِ الشِّقاقِ، واطِّراحِ دَواعي التَّفرُّقِ والاختِلافِ.

وفي الأخير؛ نهتَبِلُ هذهِ الفُرصَةَ لنَقُولَ: إنَّ الشُّكرَ الجَزيلَ مَوصُولٌ إلى كلِّ من أَسْدى إليْنَا نُصحًا أو عونًا، وإلى كلِّ من شَدَّ أَزْرَنا وعضَّدَنا وأبْدَى الفَرحَ والسُّرورَ بمجَلَّتِنا.

نَسْأَلُ اللهَ الكَريمَ أنْ يحقِّقَ آمالَنا، ويُسَدِّدَ أقوالَنا، ويُصلِحَ أعمالَنا؛ إنَّه وليُّ ذلك والقادرُ عليهِ.

مدير المجلة



كلمة الإصلاح لذوي الإصلاح

عبد المالك رمضاني

الحمد لله وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

كم هي عظيمة مصيبة المسلمين اليوم وهم يلاقون ما يلاقون من الحاقدين عليهم المبغضين لديـنهم؛ في كل يوم تسقط لهم راية، وتنحسر خريطتهم قرية بعد قرية، وتتداعى عليهم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فتستنزف ثرواتهم، وتهدر كرامتهم، ويعتدى على دينهم جهارا نهارا، وهذه بلية سـوداء، وداهية دهياء، لا ينجي منها إلا الاعتصام بالله الذي لا يغلبه شيء، والاعتصام به هو الرجوع إلى وحيه.

وانطلاقا من هذا الواقع المرير، أتقدم بالنصح الصادق لمن أكرمهم الله فجعلهم دعاة إلى سبيله بأن يجعلوا نصوص الكتاب والسنة نصب أعينهم وهدي سادة المصلحين عليهم الصلاة والسلام أول مثال لدعوتهم، وأن يكرّسوا جهودهم للعمل بمقاصد هذا الدين حتى تزكو ثمرات أعمالهم، فترتكز عليها دعوتهم، فيحيوا في الناس مقصد «الإخلاص والاتباع» حتى يكونوا من أهل التوحيد والسنة حقيقة، فلا يكن همكم أن تكثر لكم الأتباع، وتشنف لكم الأسماع، وتشرئب لكم الأعنـاق، وتضرب إليكم آباط النياق، ولكن وطنوا أنفسكم على إرضاء ربكم، وهذا هو الإخلاص، ولن ترضوا ربكم إلا باقتفاء أثر الرسولﷺ في طريقة الإصلاح، وهذا هو الاتباع، وأن تحيوا فيهم مقصد «إصلاح الباطن والظاهر»؛ فتستوي بواطنهم بظواهرهـم حتى يكونوا من أهل الصدق، وتحيوا فيهم مقصد «الذكر والشكر» حتى يكـونوا من أوليـاء الله الصالحين،



وجماع ذلك «تقوى الله» التي ينبغي أن تشغلوا الساحة الدعوية بالحديث عنها، بدءا بحق الله الأعظم الذي هو التوحيد وتركيزا عليه وعلى ما يتبعه؛ فإن من نصر حق الله نصره الله، وأن رائد ذلك كله العلم، ولذلك قال ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ١٣١): «القرآن من أوله إلى آخره يأمر بالتقوى ويحض عليها، حتى لم يذكر في القرآن شيء أكثر منها[1]، وهي وصية الله إلى الأوّلين والآخرين، وهي شعار الأولياء، وأول دعوة الأنبياء، وأهل أصحاب العاقبة، وأهل المقعد الصدق، إلى غير ذلك من صفاتها».

وقد ذكر الكلبي في «التسهيل لعلوم التنزيل» (١/ ٣٦) خمسة عشر فضلا من فضائل التقوى في القرآن، فليرجع إليه من شاء.

ومن كلمات السلف في التقوى ما نقله عنهم ابن القيم في كتابه «الفوائد» (ص٧١)، قال رحمه الله: «ودَّع ابن عون رجلا فقال: عليك بتقوى الله؛ فإن المتقي ليست عليه وحشة، وقال زيد بن أسلم: كان يقال: من اتقى الله أحبه الناس وإن كرهوا، وقال الثوري لابن أبي ذئب: إن اتقيت الله كفاك الناس، وإن اتقيت الناس لن يغنوا عنك من الله شيئا، وقال سليمان بن داود: أوتينا مما أوتي الناس ومما لم يؤتوا، وعلمنا مما علم الناس ومما لم يعلموا، فلم نجد شيئا أفضل من تقوى الله في السر والعلانية، والعدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى».

ثم أعود فأقول للدعاة: وإن كنتم تأتون السلاطين فتحدِّثونهم عن الحكم بالشريعة فجزاكم الله خيرا وسدد ألسنتكم في ذلك إلى محاسن الآداب، ورزقكم الحكمة وفصل الخطاب، لكن يجب أن تكونوا أول المتحاكمين إلى شريعة الله فيما تأتون وتذرون.

وكونوا مقتصدين في مثالب الحكام ولا تكونوا فيها من المسرفين فيسلِّطهم الله عليكم بأشد مما تحذرون، وقبل أن تجتهدوا في توعية الناس بمصابهم في حكامهم، اجتهدوا في توعيتهم بمصابهم في أنفسهم؛ فإنكم لم تؤتوا من قبلهم بقدر ما أوتيتم من قبل أنفسكم؛ قال الله ـ عز وجل ـ لخير الخلق ﷺ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال لخير الأتباع رضي الله عنهم: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فشرور الأنفس وسيئات الأعمال هي أصل كل بلية لو كان الدعاة يعقلون، فلذلك كان سيد المصلحين لا يزيد في افتتاح خطبه على التعوذ منها، فيقول: «...ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا» رواه أصحاب السنن وصححه

الألباني في تحقيقه لها.

ولا تحرِّضوا الناس على مجاهدة عدوهم قبل تحريضهم على مجاهدة أنفسهم؛ فمن عجز عن نفسه التي بين جنبيه كيف يقدر على غيرها؟!

ولابن كثير ـ رحمه الله ـ كلام متين في «تفسيره» عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾ [التوبة: ١٢٣]، قال فيه: «وقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾ أي: قاتلوا الكفار وتوكّلوا على الله واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سفال وخسار، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلاف بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد وتقدموا إليها، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام، فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله وتوكل عليه فتح الله عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله، والله المسئول المؤمول أن يمكن المسلمين من تواصي أعدائه الكافرين، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم».

وللقرطبي المفسر ـ رحمه الله ـ كلام عظيم في «الجامع لأحكام القرآن» عند قوله تعالى من سورة البقرة (٢٤٩): ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾، قال فيه (٣/ ٢٥٥): «وفي قولهم رضي الله عنهم ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ﴾ الآية، تحريض على القتال واستشعار للصبر واقتداء بمن صدق ربه، قلت: هكذا يجب علينا نحن أن نفعل؛ لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قدام اليسير من العدو كما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أيدينا؛ وفي «البخاري»، قال أبو الدرداء: «إنما تقاتلون بأعمالكم»، وفيه مسند أن النبي ﷺ قال: «هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم؟!»، فالأعمال فاسدة، والضعفاء مهملون، والصبر قليل، والاعتماد ضعيف، والتقوى زائلة، قال الله تعالى: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم



﴿تُحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥﴾ [الأنفال: ٤٥].

فهذه أسباب النصر وشروطه، وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحلَّ بنا، بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره، ولا من الدين إلا رسمه؛ لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد، حتى استولى العدو شرقا وغربا، برا وبحرا، وعمت الفتن وعظمت المحن، ولا عاصم إلا من رحم».

فانظروا إلى دقة هذا الكلام؛ ما أصدقه على الواقع، وما أسعد صاحبه بالنص! واعرفوا به أهل زمانكم، تدركوا من خلاله سبب تخلف النصر، ويتيسر لكم فهم ما يذكره العلماء الراسخون عن حكم الجهاد في ديار مسلمة قد استولت الشبهات والشهوات على أهلها إلا فئة قليلة من الغرباء، نسأل الله أن يؤنس غربتها، ويفرج كربتها.

وكونوا وقّافين عند النصوص، فبين أيديكم آيات من الكتاب بالحق ناطق، وبيان من السنة صادق، واستنباط عالم، وشهادة عوالم، فالزموه ولا تأخذكم به في الله لومة لائم، قال ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٢/ ١٥٩): «ونكتة المسألة أن تجريد التوحيدين في أمر الله لا يقوم له شيء البتة، وصاحبه مؤيّد منصور ولو توالت عليه زمر الأعداء».

وكونوا مشفقين على أرواح إخوانكم المسلمين وأعراضهم وأموالهم، فلا تعرضوها للتلف بفتوى دموية يرتجلها اللسان في ساعة فورة غضبية عمياء؛ فإن المسلم الغيور بقدر ما يحزنه أن يرى هذا الواقع المر يحزنه أن يرى اليد الآثمة تتلقف إخوانه لتذبّحهم بسبب عجلة من لا ينظر في المآل كما ينظر إلى سوء الحال؛ فإن النظر في المآلات والعواقب يعصم من كثير من الطيش والمعاطب، بل هو ميزان صحة الأعمال؛ قال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ**» متفق عليه.

فافهم هذا أيها المصلح؛ كي لا تكون أداة في يد العدو يستعملك له وأنت لا تشعر، ويستميلك إليه باستدراجك إلى حرب غير متكافئة لتُهدي له أرواح إخوانك بلا ثمن ولا نكاية فيه، يلتهمهم ثم يستفزّك ناظرا منك أن تقدّم له مجموعة أخرى ممن ربّيت على بعض الاستقامة، فينتقم منها ويورثك حسرة وندامة، وهكذا دواليك، حتى لا يبقي لك فرصة للإعداد إلا بعثر لك ما حواليك، قال الشيخ

صالح الفوزان في «الـجهاد: أنواعه وأحكامه» (ص٩٢): «كم يقتل من المسلمين بسبب مغامرة جاهل أغضب الكفار ـ وهم أقوى منه ـ فانقضوا على المسلمين تقتيلا وتشريدا وخرابا، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ويسمون هذه المغامرة بالجهاد!! وهذا ليس هو الجهاد؛ لأنه لم تتوفر شروطه، ولم تتحقق أركانه، فهو ليس جهادا، وإنما هو عدوان لا يأمر الله ـ عز وجل ـ به».

واعلموا أنه كما يعد الإقدام في المعركة شجاعة ونصرا، فإن الإحجام ـ عند غلبة مفسدة الإقدام ـ يعد شجـاعة ونصرا؛ فقد خلص الله موسى وهارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ من فرعون من غير أن يقاتلاه، بل أهلكه الله وهما هاربان منه، فسمى الله خلاصهما انتصارا مع أنهما لم يواجهاه، ولا واجهه أحد من رعيتهما، فهذا الذي يعتبره الـمتهورون ذلا ومهانة سمـاه الله انتصارا، فقال: ﴿ **وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾** ﴾ [الصافات: ١١٤ ـ ١١٦]، فتأملـوا كيف سماه نجاة ونصرا على الرغم من حرصهما على ترك المواجهة! بل أكد ذلك فوصفهم بالغلبة، فلماذا لا تجنبون ـ أيها الدعاة! ـ المسلمين اليوم عدوهم وقد عرفتم ـ بفقهكم للواقع!! ـ شراسته كما عرفتم ضعف إخوانكم؟! قـال الشيخ محمد بن عثيمين ـ رحمه الله ـ في «تفسير سورة الصافات» (ص٢٦٧): «والتخلص من العدو يسمى نصرا وفتحا وغلبة، كما قال النبي ﷺ في غزوة مؤتة حين كانت الراية مع زيد بن حارثة، ثم كانت مع جعفر بن أبي طالب، ثم كانت مع عبد الله بن رواحة، وكلهم قتلوا رضي الله عنهم، قال: «ثم أخذها خالد ففتح الله على يديه»، وخالد رضي الله عنه لم ينتصر على الروم ولم يغلبهم ولكن نجا منهم، فسمى النبي ﷺ هذه النجاة فتحا، كما سمى الله تعالى هنا نجاة موسى وهارون وقومه من فرعون أنها نصر وغلبة».

وذكر ابن النحاس في «مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق» (٢/ ٨٩١) رواية فيها أن خالدا رضي الله عنه انحاز بالجيش عن القتال في مؤتة، ورجح أن ذلك عد نصرة للمسلمين؛ واعتبره من جهة حفظ من بقي من المسلمين.

هذا، وقد صد النبي ﷺ عام الحديبية عن البيت الحرام، وسماه الله فتحا على الرغم من أن النبي ﷺ جنب المؤمنين القتال، فقال: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ**



﴿فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١]، وجعله سببا للنصر، فقال: ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح: ١]، ولذلك كان البراء يقول: «تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحا، ونحن نَعُدُّ الفتحَ بيعةَ الرضوان يوم الحديبية...» رواه البخاري (٤١٥٠)، وكان الزهري يقول: «لم يكن في الإسلام فتح قبل فتح الحديبية أعظم منه»، انظر «الفتح» (٧/ ٤٤١)، قالوا هذا مع أن ما كان في الصلح هو ظلم صريح للمسلمين؛ إذ لم يكتف المشركون بطردهم عن أوطانهم، حتى صدوهم عن مجرد زيارة خفيفة له بأداء العمرة، مع ما فيه من منع مستضعفي مكة من الالتحاق بالرسول ﷺ بالمدينة، وإجبار المسلمين على تسليم الفارين إليهم لمشركي مكة، والله المستعان.

وما كان من نصر في مثل هذه الحالات العصيبة إنما يحصل بسبب صبر المؤمنين وحرصهم على الطاعة ولو كانت النفس تنزع إلى الانتقام، فإن الصبر عند العجز من أقوى جند الله ـ عز وجل ـ، قال ابن القيم في «شفاء العليل» (ص٦٤): «وزاد عناد القوم وطغيانهم، وذلك من أكبر العون على نفوسهم، وزاد صبر المؤمنين واحتمالهم والتزامهم لحكم الله وطاعة رسوله، وذلك من أعظم أسباب نصرهم، إلى غير ذلك من الأمور التي علمها الله ولم يعلمها الصحابة، ولهذا سماه فتحا».

فهذا من استنباط هذين العظيمين: البراء رضي الله عنه والزهري ـ رحمه الله ـ، وذاك الذي مضى في سورة الصافات من استنباط عظيم من علماء هذه الأمة: ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ، لو كان المهمومون بالجهاد يهتمون بفقه الجهاد ويعرفون للعلماء قدرهم!

---

(١) عددتها فوجدتها ذكرت خمسا وثلاثين مرة ومائتي مرة، عدا المحتمل منها أو المشتق منها لغير معناها.

تدبّرُ القرآن واتباعُه

محمد لوزاني

الحمد لله أولا وآخرا وصلى الله وسلم على نبيه محمد الشفيع المشفع في الآخرة وعلى آله وصحبه أولي البصائر النيِّرة والقلوب الطاهرة، أمَّا بعد:

فإن الكلام عن القرآن الكريم أمر له شأن عظيم، إذ هو حديث عن كلام رب العالمين ذي القوة المتين، الذي له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وهو على كل شيء قدير، وهو حديث عن كلام وصفه المتكلم به فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١].

ومن آثار ذلك أن الذي يخوض فيه برأيه دون استناد إلى علم صحيح فهو على شفا تهلكة، ومن تعلمه وعلمه فهو خير الناس كما قال النبي ﷺ، والذي يتعلم ولو آيـة منه له من الأجر عند الله سبحانه ما يربو على أضعاف ما يتنافس فيه أهل الدنيا مما يعدونه أغلى وأنفس المكاسب، قال رسول الله ﷺ لبعض أصحابه ذات يوم وهم في الصُّفَّة: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ إِلَى بُطْحَان أَوِ العَقِيقِ فَيَأْتِي كُلَّ يَوْمٍ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ زَهْرَاوَيْنِ**[١] **يَأْخُذُهُمَا فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطِيعَةِ رَحِمٍ؟**»، قالوا: كلُّنا يا رسول الله يحبُّ ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «**فَلَأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ إِلَى المَسْجِدِ فَيَتَعَلَّم آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ الله خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ وَمِنْ أعدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ**»[٢].

وإني لآمل ـ وأنا أتحدث في هذا الموضوع ـ أن لا يفوتني هذا الفضل وأن يكون حديثي عن القرآن





من باب تعليمه وتعلمه والدعوة إليه.

كلُّنا يعلم بأنَّ القرآن إنما أنزل لنتدبَّر آياته ونتفقَّه فيها، ولنتبعه ونعمل بما تضمنه من أحكام، قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٥٥﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقال: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾ [إبراهيم: ٥٢].

وقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩].

فالآيات صريحة في بيان الحكمة التي من أجلها أنـزل القرآن ألا وهي التدبـر والتذكر والاتباع، ودلالتهـا على ذلك واضحة لا تـحتاج إلى شرح ولا بيان.

بل إن أعظم حقوق القرآن علينا تدبر آياته والعمل بأحكامه، وقد ضمن الله لمن حقق ذلك بأن لا يضل ولا يشقى فقال سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: ١٢٣] وأن لا يخاف ولا يحزن فقال: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة: ٣٨].

فالقراءة المقرونة بالتدبر والاتباع تلك هي التلاوة الحقيقية التي أثنى الله تعالى على أهلها في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ [البقرة: ١٢١].

فمن هم هؤلاء المؤمنون الذين يتلونه حق تلاوته يا ترى؟

قال ابن عباس: يتبعونه حق اتباعه، ثم قرأ: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢﴾ [الشمس: ٢] يقول: اتبعها[٣].

ولا يتصور اتباع وعمل من غير تدبر ولا فهم لما يراد العمل به.

ولكن مع الأسف فإن هذا الجانب قد ناله الإهمال والتفريط لدى كثير من المسلمين، فقد انصرف أكثرهم عن تلاوة القرآن وضبطه واستظهاره، والذين قاموا بذلك منهم وحققوه فإن القليل منهم الذين يتدبرون آياته ويتفقهون فيها، والأقل منهم الذين يعملون بما فيها من أحكام، ناهيك بأولئك الذين اتخذوا تلاوته حرفة ومهنة، واشتروا بآياته ثمنا قليلا، فلا يعرفون كتاب الله إلا لقراءته على الموتى في مقابل ثمن بخس دراهم معدودة، وعرض من حطام الدنيا قليل.

فمن الواجب التنبيه على هذا الحق والتذكير به دائما، والدلالة على مواقعه من آيات الكتاب الكريم

والسنة النبوية على صاحبها أزكى الصلاة وأتم التسليم، وأن يختار له أصرح الآيات والأحاديث في معناه وأظهر الجمل في الدلالة عليه وأقرب الألفاظ لتقريره في الأذهان.

❖ **معنى التَّدَبُّر وفوائده:**

تدبر الكلام أن ينظر القارئ أو السامع في أوله وآخره ثم يعيد نظره مرة بعد مرة، ولهذا جاء على وزن تفعُّل المشعر بالتكرار كالتّجرُّع والتّفهُّم والتّبيُّن، وإذا قارنًّا بينه وبين التّذكُّر علمنا بأنَّ لكل منهما فائدة غير فائدة الآخر، فالتذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب جملة، والتفكر يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلا عند القلب، فالتفكر يحصله والتذكر يحفظه، ويذكر في هذا المعنى عن الحسن أنه قال: «إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استيقظت قلوبهم فنطقت بالحكمة»[٤].

فتدبر القرآن إذن هو تحديق نظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تعقله والنظر في معاني آياته وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، وبذلك يستخرج علمها وأسرارها وحكمها، وتحصل بركة التلاوة وخيرها، وأعظم فائدة يصل إليها المتدبر للقرآن أن يعلم ويوقن بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه بعضا، ويوافق أوله آخره، فيرى الأحكام والقصص والأخبار تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متعاضدة، لا ينقض بعضها بعضا، ولا يخالف أولها آخرها ومن ثم يدرك كمال القرآن وأنه لا يمكن أن يأتي إلا من عند الله المتفرد بالكمال والجلال الذي أحاط علمه بالجهر وما يخفى، إذ لو كان من كلام البشر لما سلم من عيب ولوُجِد فيه من النقائص كالتناقض والاضطراب والاختلاف والخطأ ما يناسب طبيعة البشر وصفاتهم التي لا تنفك عن النقص، فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢] أي: لما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلا.

وقد عدد ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ فوائد تدبر القرآن فقال:

«فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل وجمع فيه الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما وتَتُلُّ في



يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة، والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه، وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان والطريق الموصلة إليه وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه»(٥).

وقد أنكر الله تعالى على المعرضين عن تدبر القرآن في مواضع كثيرة فقال: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢].

وقال: ﴿ **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ** ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

وقال: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤].

ولنستمع إلى ذلك الوعيد الشديد الذي توعد به رسول الله ﷺ من يقرأ القرآن ولا يتفكر في آياته.

فعن عطاء قال: «دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تزورنا، فقال: أقول يا أُمَّهْ كما قال الأول: زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا، قال: فقالت: دعونا من رطانتكم هذه، قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ، قال: فسكتت، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي، قال: «**يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي**»، قلت: والله إني لأحب قربك وأحب ما سَرَّكَ، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بلَّ حجره، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بَلَّ لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بَلَّ الأرض، فجاء بلال يُؤْذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله لِمَ تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ**

نزلت عليَّ الليلة آية، ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ الآية»(٦).

كما أنه تعالى ذم المعرضين عن القرآن في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة: ٢٢].

ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات القرآن العظيم بتصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها بحسب ما ترك من ذلك، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهمًا يقدر به على التدبر، وقد اشتكى النبي ﷺ إلى ربه من هجر قومه للقرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٠].

❖ اتباع القرآن:

أما الاتباع فهو ثمرة التدبر وهو الذي لا تتحقق الغاية التي يرمي إليها القرآن إلا به، وقد تكرر ذكره في القرآن في معارض شتى تدل المتأمل فيها على أنه هو سر الدين وغايته العظمى، وأنه المحقق للكمال والعاصم من الهلاك والضلال، فليتدبر التالي هذه الأمثلة من الآيات القرآنية.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال سبحانه: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف: ٣].

وقال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣].

وقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨].

وألفت نظر القارئ هنا إلى ملاحظة السر البديع في الجمع بين الأمر بالاتباع والأمر بالتدبر، وهو أن الاتباع ضرب من قفو أثر غيره وترسم خطاه والانقياد له والاشتراك معه في النتيجة خيرًا كانت أو شرا، وهذا من المعاني المذمومة والمستهجنة في الاتباع؛ لأنَّه ينافي الاستقلال الفكري والذاتي،

فتجد القرآن يدفع عنك أيها المسلم أثر هذا المعنى المستهجن العارض فيأمرك بالتدبر واستعمال الحواس الظاهرة والباطنة في وظائفها الفطرية قبل أن يأمرك بالاتباع حتى تطمئن إلى أنك إنما تتبع فيما هو حق وخير ورحمة، ثم إذا أمرك بالاتباع فإنما ذاك فيما يتعالى عن فكرك إدراكه ويعسر عليك تمييزه أو يخاف فيه غلبة الهوى عليك.

وحتى يؤكد سبحانه هذا المعنى الإيجابي للاتباع ويوضح الحق الذي ينبغي أن يتبع، ينهى بعد الأمر بالاتباع عن اتباع الهوى المضل عن الحق، وعن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وعن اتباع خطوات الشيطان، وعن اتباع السبل المتفرقة التي ما من سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه، والآيات في ذلك كثيرة ومعروفة.

فالنتيجة الحتمية التي يصل إليها الناظر في القرآن المتدبر في آياته أن يطمئن ويوقن بأن الاتباع الذي يدعو إليه القرآن إنما هو تحرر من رق العبودية للأهواء والشهوات، وتخلص من ذل الانقياد لشياطين الجن والإنس الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا.

فالإعراض عن النظر في كتاب الله وتفهمه والعمل به وبالسنة الثابتة المبينة له من أعظم المنكرات وأشنعها، ومثله أو أشد ما شاع في وسط كثير من المسلمين من القول بمنع العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بحجة انتفاء الحاجة إلى تعلمهما لوجود ما يكفي ويغني عنهما من مذاهب الأئمة المدونة والاكتفاء بتقليدها.

فهذا مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع الصحابة، ومخالف لأقوال الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب أنفسهم، فمرتكبه مخالف لله ولرسوله ولأصحابه جميعًا وللأئمة رحمهم الله.

---

(١) ناقة كَوْماء: عَظيمة السَّنام طويلته وهي من خيار مال العرب.

(٢) رواه مسلم (١/ ٥٥٢) وابن حبان (١/ ٣٢١) والنسائي (١/ ٥٤٢) وأبو داود (٢/ ٧١) وأحمد (٤/ ٥٤) والطبراني (١٧/ ٢٩٠) والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٣٢٥) من حديث عقبة بن عامر الجهني.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٣١٩).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٩).

(٥) «مدارج السالكين» (١/ ٤٥١).

(٦) أخرجه ابن حبان (٢/ ٣٨٦) والطحاوي في «المشكل» (١١/ ٢٠٣) وأبو الشيخ في «أخلاق النبي» (ص٢٠٠) من طرق عن عطاء به، وهو في «الصحيحة» (١/ ١٠٦).

الأطفال في بيت النبوة

فريد عزوق

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد:

فإن تربية الطفل على الاستقامة، وتعليمه طرق الفلاح والصلاح، وفتح باب الخير له، والاكتشاف والمعرفة مَهَمَّة أوكلها الله تعالى إلى الآباء فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: ٦].

ولما كان التعاون على الخير أصلا معتبرا في شرعنا، فقد أجاز الشرع الحنيف أن يوكل الآباء غيرهم ليقوموا بجزء من وظيفتهم في التربية والتعليم، فكان المعلمون بهذا الأصل وكلاء شرعيين لأداء مهمتهم مع الأبناء، ومن هنا جاءت القاعدة التربوية لتنص على أن المعلم ينزّل منزلة الأب في التأديب والتعليم.

وعليه فإن مسؤولية المعلم في منهج التربية الإسلامية لا تقتصر على مجرد التلقين ونقل المعلومة، بل تتعدى ذلك إلى الرعاية والاهتمام والتهذيب.

ولن يكون ذلك كذلك إلا إذا نزّل المعلم نفسه منزلة الأب في الحرص على خير الأبناء، فغمرهم بالرحمة وشملهم بعطفه وحبه وعنايته.

ولقد منَّ الله تعالى على هذه الأمة بأن بعث فيهم رسولا منهم، وكان بهم رؤوفا رحيما، فدلهم على الخير والنجاة، وحذرهم من كل الشرور والمهلكات، فكان ﷺ بأمته أحرص من الأب على



ابنه، والأم على ولدها، ولذا وجب على المعلمين أن ينهلوا من هديه ﷺ في التربية والتعليم ليسلكوا بتلامذتهم المسلك الصحيح، ويقوموا بمسؤولياتهم أحسن قيام.

وفي هذه الصفحة نحاول أن نستعرض سيرة النبيﷺ في بيته مع الأطفال سواء أكانوا من البنات أم الأحفاد أو ربائب أو غيرهم، لنرتشف من عبيق سيرته ما يضفي على العملية التربوية الفعالية والنجاح.

الحلقة الأولى: مع ربيبه عمر بن أبي سلمة.

روى البخاري في «صحيحه» عن عمر بن أبي سلمة قال: «كنت غلاما في حجر[1] رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش[2] في الصحفة[3] فقال لي رسول الله ﷺ: «**يَا غُلَامُ! سَمِّ اللهَ وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»، فما زالت تلك طعمتي بعد»[4]، وفي رواية أبي داود[5]: «**ادْنُ بُنَيَّ فَسَمِّ اللهَ وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»، وفي رواية الترمذي[6]: «**ادْنُ يَا بُنَيَّ: وَسَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**».

ففي هذا الحديث مواقف تربوية عظيمة منها:

أوَّلا: فيه اهتمام النبيﷺ بسلوك ربيبه عمر بن أبي سلمة أثناء الأكل، والحرص على معالجة خطئه، حتى لا يصير ذلك عادة سلوكية يصعب مع مرور الأيام تركها، وهذا يدل على أن العملية التعليمية لا تقتصر على تزويد الطالب بالمعارف بل تقتضي كذلك حل المشكلات ومعالجة الأخطاء السلوكية.

ثانيا: طريقة معالجة النبيﷺ لخطأ عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه بأسلوب الأب المشفق والمعلم الرحيم، حيث ناداه بعبارة فيها تحنُّن وتلطف وعطف، فقال: «**يَا غُلَامُ**»، وفي رواية أبي داود «**ادْنُ بُنَيَّ**»، وفي رواية الترمذي: «**ادْنُ يَا بُنَيَّ**»، ولاشكَّ أن هذا النداء يشيع في النفس الطمأنينة، ويثير فيها حب الاستجابة وحب التطلع إلى ما يقوله المربي، وفيه دعوة للمعلمين إلى ضرورة الاعتناء بمخاطبة تلامذتهم بما لا يدعوهم إلى النفور والقلق والخوف أو التذمر، فليس من اللائق مناداة التلميذ ـ إذا ما أخطأ ـ بأسماء الحيوان، أو بألفاظ نابية تجعله محل هزء بين أصحابه، وربما أدى ذلك إلى رد فعل سلبي تحول مع مرور الزمن إلى كره المدرسة أصلا، فإقرار مبدأ الرفق والملاطفة في التعامل مع الأطفال مسلك نبويٌّ مرعيٌّ قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلَا مُتَعَنِّتًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**»[7].

الثالث: أن النبيﷺ بادر الطفل بالحل مباشرة

قائلا له: «سَمِّ اللهَ وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ» ليفهمه بطريق غير مباشر أن ما كان يفعله خطأ يجب تركه، وفي هذا تنبيه للمعلمين إلى ضرورة مراعاة نفوس التلاميذ، فلا يعيرونهم بأخطائهم، أو يتوسَّعون في ذكرها أمام التلاميذ، بل يجعلون همَّهم إصلاح الخطأ بأيسر طريق وأنجح سبيل، وإذا رأى الأستاذ أن هذا الخطأ قد يتكرَّر عند التلاميذ، فلا بأس من استعمال أسلوب التعريض ليعمَّ التعرُّف على المشكلة وأسبابها وسبل علاجها.

الرابع: أن تعليمه ﷺ الطفل آداب الأكل والاهتمام به[8] يدل من باب أولى على ضرورة الاعتناء ببعض الأحكام الشرعية الأخرى التي يحتاج إليها الصبي كالوضوء وأحكام الصلاة.

الخامس: أن تعليم النبي ﷺ الصغير البداءة ببسم الله في الأكل فيه ربط للصبي بالله تعالى، وأن يعتقد أنَّ الفضل من الله تعالى لا شريك له، لذلك يستحق أن يطاع ويشكر، وفي ذلك تنبيه للمعلمين على ضرورة الاعتناء بالأصل العقدي والبداءة به، ليشبَّ الأطفال وقد تعلقت نفوسهم بالله تعالى.

السادس: أن هذا المسلك التعليمي دل على فعاليته ونجاحه وأثره الطيب على الأطفال، قولُ عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه في آخر الحديث: «فما زالت تلك طعمتي بعد».

---

(١) في حجر رسول الله ﷺ: أي في رعايته وتربيته.

(٢) تطيش: تتحرك في كل النواحي ولا تلزم موضعا واحدا.

(٣) الصحفة: القصعة التي يوضع فيها الأكل.

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه»: كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين (٥/ ٢٠٥٦) حديث رقم (٥٠٦١)، ومسلم في «صحيحه»: كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامها (٣/ ١٥٩٩) حديث رقم (٢٠٢٢).

(٥) أبو داود في «السنن»، كتاب الأطعمة، باب الأكل باليمين (٢/ ٢٧٦) حديث رقم (٣٧٧٧).

(٦) الترمذي في «الجامع»، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام (٤/ ٢٨٨) حديث رقم (١٨٥٧).

(٧) مسلم في «صحيحه» برقم (١٤٧٨).

(٨) ويدخل في ذلك آداب النوم والشرب وقضاء الحاجة وغيرها.

شفاعة

النبي ﷺ لأهل التوحيد والإخلاص

د/ كمال قالمي

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه قال: قِيل يَا رَسُولَ الله! مَنْ أَسْعدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيامَةِ؟ قال رَسُولُ الله ﷺ: «**لَقَدْ ظَنَنْتُ يا أبا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحديثِ.**

أَسْعدُ النَّاسِ بِشَفَاعتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالصًا مِنْ قَلْبِهِ أو نَفْسِه».

* **تخريج الحديث**: أخرجه البخاريُّ في العلم (٩٩) من طريق سليمان (هو ابن بلال التَّيميُّ مولاهم)، عن عمرو بن أبي عمرو، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُرِيّ، عن أبي هريرة، فذكره.

وأخرجه في الرِّقاق (٦٥٧٠) من طريق إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو به، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه قال: «قلتُ: يا رسول الله...» الحديث، وقال في آخره: «خالصًا من قِبَلِ نفسِه».

* **معاني بعض الكلمات:**

قوله: «قال: قيل...» كذا وقع بصيغة التَّمريض في بعض نسخ البخاريِّ، وليس في أكثر النُّسخ لفظة «قيل».

قال الحافظ ابن حجر: «وهو الصَّواب (يعني بدون ذكرها)، ولعلَّها كانت «قلت» فَتَصَحَّفَتْ، فقد أخرجه المصنِّف في الرِّقاق كذلك»[1].

فالسَّائل هو أبو هريرة رضي الله عنه نفسه بدليل قولِ النبيِّ ﷺ له: «**لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ**».

قوله: «**أَسْعَد النَّاسِ**»: أي أَحْظَاهم، والسَّعادة خلاف الشَّقاوة.

ولفظ «أَسْعد» اسم تفضيل، واسْتُعْمِل هنا فيما

ليس في الطَّرف الآخر مشاركة، كقوله تعالى: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٤]، والمعنى أنَّ أسعد النَّاس بشفاعة المصطفى ﷺ هم الموحِّدون المخلصون فلا يشاركهم في ذلك أحدٌ.

وقيل: أَفْعَل هنا ليست من باب المفاضلة، وإنَّما هي بمعنى فَعِيل أي سعيد، والمعنى سعيد النَّاس؛ إذْ لا يَسْعَدُ بشفاعته مَنْ ليس من أهل التَّوحيد.

وقيل: هي اسم التَّفضيل على بابها، وأنَّ كلَّ أحدٍ تحصلُ له سعادةٌ بسبب شفاعته ﷺ؛ لكن المؤمن المخلص أكثر سعادة بها؛ لأنَّه ﷺ يشفع لأهل الموقف في أرض المحشر لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم[٢].

قوله: «**بشفاعتك**»: الشَّفاعة مأخوذة من الشَّفع، وهو خلاف الوتر، وهو الزَّوج تقول: كانَ وترًا، فَشَفَعْتُه شَفْعًا، فصار زوجًا، كأنَّ المشفوع له كان فردًا، فجعله الشَّفيعُ شَفْعًا بضمِّ نفسِه إليه، وأكثر ما تُستعمل في انضمام من أعلى مرتبة إلى مَنْ هو أدنى[٣].

قوله: «**مِنْ قَلْبِه أو نَفْسِه**»: شَكٌّ من الرَّاوي، وفي الرِّواية الأخرى: «مِنْ قِبل نفسه».

*** من فوائد الحديث:**

١ ـ فيه منقبة عظيمة، وفضيلة جليلة لأبي هريرة رضي الله عنه؛ حيث شهد له النبيُّ ﷺ بالحرص على سماع الحديث منه.

٢ ـ فيه إثبات الشَّفاعة لنبيِّنا ﷺ يوم القيامة، وقد خصَّه الله تعالى بثلاث شفاعات[٤]:

الأولى: شفاعته ﷺ في أهل الموقف، ليُقضى بينهم بعد أن يتراجع عنها أولو العزم من الرُّسل نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى بن مريم ـ عليهم السَّلام ـ، وقبلهم نبيُّ الله آدم ـ عليه السّلام ـ، حتى تنتهي إلى نبيِّنا ﷺ[٥].

وهذه هي الشَّفاعة العظمى، وهي المقام المحمود الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ الشَّمْسَ تَدْنُو يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يَبْلُغَ العَرَقُ نِصْفَ الأُذُنِ، فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بِآدَمَ، ثُمَّ بِمُوسَى، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَيَشْفَعُ لِيُقْضَى بَيْنَ الخَلْقِ، فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلقَةِ البَابِ، فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ اللهُ مَقَامًا مَحْمُودًا، يَحْمَدُهُ أَهْلُ الجَمْعِ كُلُّهُمْ**»[٦].

وهذه الشَّفاعة العظمى لم يخالف فيها أحدٌ من الطَّوائف.

الثَّانية: شفاعته ﷺ في أهل الجنَّة أن يدخلوا

الجنَّة، بعد الفراغ من الحساب.

ويدلُّ عليها ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إِنِّي لَأَوَّلُ النَّاسِ تَنْشَقُّ الأَرْضُ عَنْ جُمْجُمَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأُعْطَى لِوَاءَ الحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنِّي آتِي بَابَ الجَنَّةِ فَآخُذُ بِحَلْقَتِهَا فَيَقُولُونَ: مَنْ هَذَا؟ فَأَقُولُ: أَنَا مُحَمَّدٌ، فَيَفْتَحُونَ لِي فَأَدْخُلُ، فَإِذَا الجَبَّارُ ـ عزَّ وجلَّ ـ مُسْتَقْبِلِي، فَأَسْجُدُ لَهُ، فَيَقُولُ: ارْفَعْ رَأْسَك يَا مُحَمَّدُ، وَتَكَلَّمْ يُسْمَعْ مِنْكَ، وقُلْ يُقْبَلْ مِنْكَ، وَاشْفَع تُشَفَّع، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: اذْهَبْ إِلَى أُمَّتِكَ فَمَنْ وَجَدْتَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ شَعِيرٍ مِنَ الإِيمَانِ فَأَدْخِلْهُ الجَنَّةَ،...**» الحديث[٧].

الثَّالثة: شفاعته ﷺ في عمِّه أبي طالب أن يخفَّف عنه العذاب.

ويدلُّ على ذلك ما جاء عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه، أنَّه سمع النبيَّ ﷺ، وذُكر عنده عمُّه، فقال: «**لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُه**»[٨].

وهذه الشَّفاعة المتمثِّلة في تخفيف العذاب، خاصَّة بعمِّ النبيِّ ﷺ من دون سائر الكافرين؛ لأجل ما كان يحوط رسول الله ﷺ من الرِّعاية في صغره والحماية من إيذاء قومه، ونصرته والقيام معه في مواقف كثيرة في الدَّعوة إلى الله، فعن العبَّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه، أنَّه قال للنبيِّ ﷺ: ما أغنيتَ عن عمِّك، فإنَّه كان يحوطُك ويغضبُ لك؟! قال: «**هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»[٩].

وأمَّا غيره من الكافرين، فقد أخبر الله تعالى في غير ما آية أنَّهم لا يُخفَّف عنهم العذاب يوم القيامة، كما في قوله: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ**﴾ [فاطر: ٣٦].

وشفاعة النَّبيِّ ﷺ لعمِّه في تخفيف العذاب، لا في إخراجه من النَّار، وعليه فلا يتعارض هذا مع ما جاء في القرآن من عدم منفعة شفاعة الشَّافعين في الكافرين، كقوله تعالى: ﴿**وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾ [غافر: ١٨]، وقوله: ﴿**فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾ [المدثر: ٤٨].

والشَّفاعة لله وحده لا يملكها ملكٌ مقرَّب

ولا نبيٌّ مرسل، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، ولا تحصل إلَّا إذا أذن الله تعالى فيها للشَّفيع، ورضي عن المشفوع له، قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

فإذا كان سيِّد ولد آدم ﷺ لا يشفع ابتداءً، وإنَّما يشفع بعد الاستئذان ـ كما تقدَّم في الحديث ـ، فكيف بمن يطلبها من الأموات الذين لا يملكون لأنفسهم ـ فضلًا لغيرهم ـ نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟! هذا من أقبح الفِعال، بل من أمحل المحال.

وقد أخبر ﷺ بأنَّ الميِّت قد انقطع عمله، وهو أحوج ما يكون إلى من يدعو له، قال ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[١٠].

ولذلك لم تشرع زيارة القبور إلَّا لأجل تَذكّر الآخرة، والدُّعاء لأصحابها لا دعاؤهم، كما جاء عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلِّمُهم إذا خرجُوا إلى المقابر يقول: «السَّلام عليكم أهلَ الدِّيار من المؤمنين والمسلمين، وإنَّا إن شاء اللهُ للَاحقون، أسألُ اللهَ لنا ولكم العافيةَ»[١١].

وأمَّا شفاعته ﷺ فيمن استحقَّ النَّار من عصاة الموحِّدين ألَّا يدخلها، وشفاعته فيمن دخل النَّار من عصاة الموحِّدين أن يخرج منها، فهذه يشاركه فيها غيرُه من الأنبياء والملائكة والصِّدِّيقين والشُّهداء، كما دلَّت على ذلك الأحاديث الصَّحيحة.

وهاتان الشَّفاعتان يثبتهما أهلُ السُّنَّة، وينكرهما أهلُ البدعة من الخوارج والمعتزلة الذين يكفِّرون أصحاب الكبائر ـ إن لم يتوبوا منها ـ ويقولون: إنَّ من دخل النَّار لا يخرج منها أبدًا، فردُّوا بذلك الأحاديث الثَّابتة المتواترة الصَّريحة كقوله ﷺ: «**شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**»[١٢].

وقد أورد جملة منها الحافظ أبو بكر محمَّد بن الحسين الآجرِّي ـ رحمه الله ـ في كتابه «الشَّريعة»، ثمَّ قال: «فأرجو لمن آمن بما ذكرنا من الشَّفاعة، وبقوم يخرجون من النَّار من الموحِّدين، وبجميع ما تقدَّم ذكرنا له، وبجميع ما سنذكره ـ إن شاء الله ـ من المحبَّة للنَّبيِّ ﷺ، ولأهل بيته وذرِّيَّته وصحابته، وأزواجه ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ أن يرحمنا مولانا الكريم، ولا يُحْرِمْنا وإيَّاكم من فضله ورحمته، وأن يُدْخلنا وإيَّاكم في شفاعة نبيِّنا محمَّد ﷺ وشفاعة من ذكرنا من الصَّحابة وأهل بيته وأزواجه



ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ، ومن كذَّب بالشَّفاعة فليس له فيها نصيب، كما قال أنس بن مالك»[١٣].

٣ ـ فيه فضل كلمة «لا إله إلَّا الله»: كلمة الإخلاص والتَّوحيد، والكلمة الطَّيِّبة، والقول السَّديد، وكلمة التَّقوى والعروة الوثقى، وكلمة الصِّدق ودعوة الحقِّ، والكلمة الحسنة ومفتاح الجنَّة... شهد الله تعالى بها لنفسه، وشهد له بها ملائكته وأولو العلم من عباده: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، ولأجلها خلق الله الخلق وتكفَّل لهم بالرِّزق ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨]، ومن أجلها أرسلتِ الرُّسل وأُنزلت الكتب ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وبها عُصمت الأنفس والأموال والدِّماء، وفضائلها في نصوص الوحيين لا تحصى كثرة[١٤].

واعلم أخي المسلم أنَّ هذه الكلمة الطَّيِّبة لا تنفع قائلها يوم القيامة وتستوجب له دخول الجنة، والنَّجاة من النَّار، إلَّا باستجماع شروطها، وانتفاء موانعها، والعمل بمقتضاها، ومن ذلك الإخلاص لله تعالى فيها، كما جاء في هذا الحديث العظيم: «**خَالصاً مِنْ قَلْبِه**».

والإخلاص لله تعالى رُكنٌ ركينٌ في جميع العبادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وفي «الصَّحيحين» عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»[١٥].

وإنَّ من أعظم العبادات وأجلِّ الطَّاعات الَّتي أمر الله تعالى بالإخلاص فيها: الدُّعاء، كما جاء عن النُّعمان ابن بشير رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]»[١٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

فالواجب إخلاص الدُّعاء لله تعالى، وعدم صرف شيء منه لغيره سبحانه؛ فدعاء الأولياء والصَّالحين وأصحاب الأضرحة والقِباب في قبورهم والاستغاثة بهم وطلب الحوائج منهم كلُّ ذلك ينافي الإخلاص وينقضه بل هو الشِّرك بعينه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن

﴿تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣ ـ ١٤].

ولا تنفعهم معذرتهم بأنَّهم لا يعبدونهم وإنَّما يتَّخذونهم وسائط فقط؛ بحجَّة أنَّ لأوليائهم منزلةً وجاهًا عند الله، كما يتَّخذون شفعاء ووسائط لهم مكانة عند مَنْ حاجتُهم بيده، فوقعوا في تشبيه الخالق بالمخلوق، وهو من الشِّرك الأكبر الذي أنكره الله تعالى على مشركي العرب قديماً ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨].

والشِّرك بالله ظلمٌ عظيمٌ وجرمٌ جسيم، ووِزْرٌ فظيع وإثمٌ شنيع، مُحْبِطٌ للأعمال ومبطلُها، ومفسدٌ للأديان ومهلكها، أضراره جسيمة، وعواقبه وخيمة، سبب للخلود في النِّيران والحرمان من الجنان، لا يُغفر إلَّا بتوبةٍ نصوح خالصة، وعودةٍ إلى حظيرة التَّوحيد صادقة.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وفي «الصَّحيحين» عن النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ مَاتَ يُشْرِكُ باللهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «وقلت أنا: من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة».

قـال الإمام الحافظ شمس الدِّين ابن قيم الجوزيَّة ـ رحمه الله ـ:

«ومن أنواعه (أي الشِّرك الأكبر): طلبُ الحوائجِ من الموتى، والاستغاثةُ بهم، والتَّوجُّه إليهم.

وهذا أصلُ شرك العالم؛ فإنَّ الميِّت قد انقطع عملُه، وهو لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، فضلًا عمَّن استغاث به، أو سأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها، وهذا من جهله بالشَّافع والمشفوع له عنده كما تقدم، فإنَّه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلَّا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سببًا لإذنه، وإنَّما السَّبب لإذنه: كمال التَّوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزلة من استعان في حاجة بما يمنع حصولها، وهذه حالة كل مشرك، والميِّت محتاج إلى من يدعو له، ويترحم عليه، ويستغفر له، كما أوصانا النبي ﷺ إذا زُرْنا قبورَ المسلمين أن نترحَّم عليهم، ونسأل لهم العافية والمغفرة، فعكس المشركون هذا، وزاروهم زيارَةَ

العبادة، واستقضاء الحوائج، والاستغاثة بهم، وجعلوا قبورهم أوثانًا تُعبد، وسموا قصدها حجًّا، واتخذوا عندها الوقفة وحلق الرأس، فجمعوا بين الشِّرك بالمعبود الحقِّ وتغيير دينه، ومعاداة أهل التَّوحيد ونسبة أهله إلى التنقّص للأموات، وهم قد تنقَّصوا الخالق بالشِّرك، وأولياءَه ـ الموحِّدين له، الذين لم يشركوا به شيئا ـ بذمِّهم وعيبِهم ومعاداتِهم، وتنقَّصُوا من أشركوا به غايةَ التَّنقُّص إذْ ظنُّوا أنَّهم راضون منهم بهذا، وأنَّهم أمروهم به، وأنّهم يوالونهم عليه، وهؤلاء هم أعداء الرُّسل والتوحيد في كلِّ زمان ومكان، وما أكثرَ المستجيبين لهم! ولله خليلُه إبراهيم ـ عليه السلام ـ حيث يقول: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥ـ٣٦].

وما نجا من شَرَك هذا الشِّرك الأكبر إلَّا من جرَّد توحيده لله وعادى المشركين في الله وتقرَّب بمقتهم إلى الله...» انتهى كلامه[١٧].

---

(١) «فتح الباري» (١/ ١٩٤).

(٢) ينظر: «شرح الكرماني على صحيح البخاري» (١/ ٩٤)، و«فتح الباري» (١/ ١٩٤).

(٣) ينظر: «شرح صحيح البخاري» للكرمانيّ (١/ ٩٤).

(٤) ينظر «العقيدة الواسطية» (ص١٥٦ ـ ١٥٩) مع شرحها للشيخ صالح الفوزان.

(٥) كما في «الصّحيحين» من حديث أبي هريرة بطوله، رواه البخاريّ (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤)، ورواه البخاري (٤٤٧٦، ٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٦) رواه البخاريّ في الزّكاة (١٤٧٤، ١٤٧٥).

(٧) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ١٤٤)، والدّارميّ (٥٣) من طريق عمرو بن أبي عمرو، عن أنس بن مالك.
وَجَوَّدَ الألباني إسناده في « الصّحيحة» (٤/ ١٠٠).

(٨) رواه البخاري (٣٨٨٥)، ومسلم (٢١٠).

(٩) رواه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩).

(١٠) رواه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١١) رواه مسلم (٩٧٥).

(١٢) رواه أبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥)، وهو صحيح، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦٤٩).

(١٣) «الشّريعة» (٣/ ١٢٥٢).

(١٤) انظر: «كلمة الإخلاص» لابن رجب (ص٧٩) وما بعدها.

(١٥) رواه البخاريّ (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(١٦) رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذيّ (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٦٧، ٢٧١)، وابن حبان (٨٩٠)، والحاكم (١/ ٤٩٠) كلّهم من طريق ذر (هو ابن عبد الله الهمدانيّ)، عن يُسيع الحضرميّ، عن النّعمان، به، وصحّحه الترمذيّ والحاكم.

(١٧) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٦).

الـموطأ

بـرواية أبي مصعب الـزهـري

د/ رضا بوشامة

الحمد لله وحده، والصَّلاة والسَّلام على من لا نبيَّ بعده، وبعد:

فَمِنْ أعظمِ الكتبِ التي صُنِّفت في القرن الثَّاني الهجري «مُوَطَّأُ إمامِ دارِ الهجرةِ مالكِ بْنِ أَنسٍ الأَصْبَحِيِّ» (ت ١٧٩هـ)، وقد أخذَه عنه أَزْيَدَ من سَبْعين رجلاً، ولم يَشْتَهِرْ مِنْ هذه الرِّواياتِ إلاَّ القليل، ثمَّ لَمْ يَبْقَ منها إلى يومِنَا هذا إلاَّ النَّزْر اليَسير، وهو ما يُوازِي عُشْرَ العددِ الَّذي أَخَذَ عن مالكٍ الموطَّأَ.

ومن تلك الرِّواياتِ المشهورةِ رواية أبي مُصْعَبٍ الزُّهريِّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ.

وفي هذا المقال تعريف بهذه الرواية وصاحبها على سبيل الاختصار، أسأل الله أن ينفع كاتبها وقارئها، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

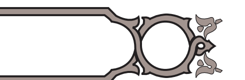
*** التَّعريف بصاحب الرِّواية:**

هو أحمد بن أبي بكر ـ واسمه القاسم ـ بن الحارث بن زُرارة بن مصعب بن عبد الرحمن بن عَوْفٍ القُرَشِيّ، أبو مصعب الزُّهريُّ المدنيُّ الفقيهُ، القاضي.

أخرج له الشَّيخان في «صحيحيهما»، توفي سنة (٢٤١هـ).

تنبيه: يخلط كثير من النَّاس بين أبي مصعب الزُّهري ومُصعب الزبيريُّ؛ لتشابههما، وهذا الخلط غالبًا يكون سَبْقَ لسانٍ منهم، فقد سمعتُه من كثيرٍ من الفُضَلاء، وأبو مصعب الزُّهري غير مصعب الزّبيري، وكلاهما يروي عن مالك «موطَّأه».

ومصعب الزّبيري هو مصعب بنُ عبد الله بنِ مصعب بنِ ثابت بن عبد الله بن الزُّبَيْر بن العوَّامِ



المتوفى سنة (٢٣٦هـ)، ولعلَّه تأتي مناسبةٌ للكلام على روايته ـ وإن كانت مفقودة ـ وذلك أنَّ الحافظ أبا القاسم عبد الله بن محمَّد البغوي حفظ لنا منها نصوصًا يرويها مصعب الزّبيري عن مالك، وأدرجها في كتابه الذي جمعه في حديث مصعب الزّبيري، وهو مطبوع.

*** ثناء العلماء عليه (أبي مصعب الزُّهري):**

قال أبو حاتم وأبو زرعة: «صدوق»[١].

وقال النَّسائي: «لا بأس به»[٢].

وَوَثَّقَهُ جَمْعٌ من الأئمَّة كمسلمة بن قاسم وابن حِبَّان، والحاكم، والذَّهبي، وقال ابن حجر: «صدوق»[٣].

وتكلَّم فيه أبو خيثمة، قال ولده في «التَّاريخ الكبير»: «وخرجنا سنة تسع عشرة ومائتين إلى مكَّةَ فقلت لأبي: عمَّن أَكْتُبُ؟ قال: لا تكتب عن أبي مصعب، واكتب عمَّن شئت»[٤].

وعلَّق الذَّهبيُّ على هذا فقال: «ما أدري ما معنى قول أبي خيثمة لابنه أحمد: لا تكتب عن أبي مصعب، واكتب عمَّن شئت»[٥].

وأما ابن حجر فقال: «ويُحتمل أن يكون مراد أبي خيثمة دخوله في القضاء أو إكثاره من الفتوى»[٦].

قلت: ونصَّ على الاحتمال الثَّاني القاضي عياض فقال: «إنَّما قال ذلك؛ لأنَّ أبا مصعب كان يميل إلى الرأي، وأبو خيثمة من أهل الحديث، ممَّن يُنَافِرُ ذلك، فلذلك نهى عنه، وإلاَّ فهو ثقةٌ لا نعلم أحدًا ذكره إلاَّ بخير»[٧].

*** سماعه من مالك:**

ذكر الخليليُّ أنَّه آخرُ من روى عن مالك «الموطَّأ» من الثِّقات[٨].

وقال ابن حزم: «آخر ما رُوي عن مالك: موطأ أبي مصعب، وموطأ أبي حذافة السَّهمي»[٩].

*** مكانته في الرواية عن مالك:**

قال الدَّارقطني: «أبو مصعب ثقة في الموطأ»[١٠].

وقدَّمه بَقِيُّ بنُ مَخْلَدٍ لشَرَفِه ونسبِه، أخرَج روايتَه في «مسندِه» وأخَّر روايةَ يحيى اللَّيثي مع شهرتِها في الأندلس.

روى القاضي عياض وابن بشكوال بسنديهما عن أسلم بن عبد العزيز قال: قال بقيُّ بن مخلد: «لما وضعت مُسْنَدِي جاءني عبيدُ الله وإسحاقُ ابنا يحيى ابن يحيى فقالا لي: بلغنا أنَّك وضعتَ كتابًا قدَّمتَ فيه أبا مصعب الزُّهري ويحيى بنُ بكير، وأخَّرت أبانا، فقلت لهما: أمَّا تقديمي لأبي مصعب فلقول

رسول الله ﷺ: «**قَدِّمُوا قُرَيْشًا وَلاَ تَقَدَّمُوهَا**»، وأمَّا تقديمي لابن بكير فلسِنِّه، وقد قال رسول الله ﷺ: «كَبِّرْ، كَبِّرْ»، ولأنَّه سمع «الموطَّأ» من مالك سبع عشرة مرَّة، وأباكما لم يسمع منه إلاَّ مرَّة واحدة، فخرجا من عنده، وخرجا معه إلى حدِّ العداوة»[١١].

وتُعدُّ رواية أبي مصعب من آخر الرِّوايات عن مالك كما تقدَّم، فلذا تشابهت مع رواية يحيى في الغالب، قال ابن عبد البرِّ: «وقد تأمَّلت روايةَ يحيى فيما أَرْسَلَ من الحديث ووصل في «الموطَّأ»، فرأيتها أشدّ موافقةً لرواية أبي مصعب في «الموطأ» كلّه من غيره، وما رأيت روايةً في «الموطَّأ» أكثر اتِّفاقًا منها»[١٢].

وأمَّا ما يُذكر عن ابن حَزْمٍ أنَّه قال: «في موطَّأ أبي مصعب زيادة على الموطَّآت نحو من مائة حديث»[١٣]. فأمرٌ بعيد.

وقد قام محقِّقا رواية أبي مصعب بإحصائيَّة للأحاديث الزَّائدة في رواية أبي مصعب على رواية يحيى، فبلغت الأحاديث المسندة خمسة عشر حديثًا مسندًا زائدًا[١٤].

قلت: وهذا العددُ صحيحٌ إلى حدٍّ ما، وفاتَهما الحديث رقم: (٢٢٢٠) فلم يَذْكُرَاه، وهو من الزِّيادات على رواية يحيى، فتصير بذلك ستَّة عشر حديثًا.

ثمَّ إنَّ أبا العبَّاس الدَّاني ذكر حديثًا في قسم الزِّيادات ونسبه إلى أبي مصعب، وهو ما رواه سَعْدُ ابن أبي وقَّاص: «أنَّ رسول الله ﷺ أمر بقتل الوَزَغِ»، ولم أقفْ عليه في المطبوع ولا المخطوط من هذه الرِّواية، والله أعلم.

وذَكَرَا حديثَيْن مُرْسَلَيْنِ عند يحيى، وهما متَّصلان في رواية أبي مصعب.

وحديثًا بلاغًا في رواية يحيى وهو متَّصل في رواية أبي مصعب.

قلت: وهو من الموقوف على عُمَرَ، فلا يدخل تحت هذا الإحصاء.

وفي رواية أبي مصعب ستَّة أحاديث مُرْسَلَة، ولا ذِكْرَ لها في رواية يحيى.

قلت: وذكرَا من بينها حديثَ يحيى بن سعيد مرسلاً: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ كُفِّنَ في ثلاثة أثوابٍ سحولية».

وهذا الحديث لم يرد في رواية يحيى المطبوعة (تحقيق فؤاد عبد الباقي)، لكنَّه ورد في النُّسخة الخطيَّة من الكتاب (ل: ٣٧/ ب نسخة المحمودية)، والخطأ في المطبوع، ثمَّ إنَّ بشَّار عواد أثبته في تحقيقه

لرواية يحيى رقم (٥٩٧)، فأَحْسَنَ.

وحديثًا برقم (٢٥٠١) وهو حديث سعيد ابن المسَيِّب مرسلاً: «أنَّ رسولَ الله ﷺ نهى عن بيع الغَرَرِ»، ونَفَيَا وجودَه في رواية يحيى، وهو موجود في المطبوع منه، إلاَّ أنَّه اختلف موضعه عن موضع أبي مصعب من كتاب البيوع[١٥].

ثمَّ قالاَ: فهذه أربعةٌ وعشرونَ حديثًا متَّصلة، لَمْ تَرِدْ أصْلاً أو لم تَرِدْ مُتَّصِلَة في رواية يحيى.

قلت: وهذا العدد يحتاج إلى إعادة نظرٍ كما سَبَقَ.

ثمَّ قالا: «لكن نلاحظ في الوقت نفسِه أنَّ رواية أبي مصعب تضمَّنت تسعةَ أحاديثَ مُرْسَلَةٍ، وبلاغًا واحدًا، جاءت في رواية يحيى متَّصلة».

قلت: ذكرَا حديثًا برقم: (٣٢١)، وهو موقوف على القاسم بن محمَّد، فلا يدخل تحت هذا الإحصاء.

وحديثًا برقم: (٣٦٤)، مرسلٌ في رواية أبي مصعب، متَّصلٌ في رواية يحيى، والصَّوابُ أنَّ الحديث مِمَّا اخْتَلَفَ الرُّواةُ فيه على يحيى اللَّيْثِيِّ[١٦].

وحديثًا برقم: (٩٢٠)، وهو حديثُ نافعٍ مَوْلَى ابنِ عُمَرَ مُرْسَلاً في النَّهي عن قَتْلِ النِّساء والصِّبيان في الغَزْوِ، وجاء في المطبوع من رواية يحيى موصولاً، والصَّوابُ أنَّ يحيى رواه مرسلاً، وما في المطبوع خطأٌ[١٧].

وحديثًا برقم: (٢٠١١) لكنَّه في النُّسخة الهنديَّة التي اعتمدَا عليها مُرْسَلٌ!

فهو في موطَّئِه (ل: ٣٤٦/ ب ـ النُّسخة الهنديَّة) عن مالك، عن إسحاق بن عبد الله، عن رسول الله ﷺ، كذا جاء الحديث في هذه النُّسخة، وقد أثْبَتَ النَّاسخُ الفَرْقَ بين روايةِ يحيى وأبي مصعب في الحاشيَةِ فقال: «يحيى بدل: زُفَر بن صعصعة، عن أبيه، عن أبي هريرة».

وفي المطبوع من هذه الرواية (٢/ ١٣٥) (رقم ٢٠١١) ألحق المحقِّقان في إسناده ـ وقد اعتمدَا النُّسخةَ الهنديَّة ـ: زُفَر بن صعصعة بن مالك، عن أبيه، عن أبي هريرة! بين قوسين، ولم يُبيِّنَا ما وقع في نسختهما من النَّقص.

وذكرَا حديثًا برقم: (٢١٧٩) وقالا: «ولعلَّه هناك سَهْوٌ من النَّاسخ، فقد ورد الحديث من طريق مالك...»، ثمَّ ذكراه مَوْصُولاً وعَزَيَا الرِّوايةَ ليحيى وغيرِه.

قلت: هو حديث «مَرَّ بِشَاةٍ ميتة»، وفيه : «**أَفَلاَ انْتَفَعْتُمْ بِجِلْدِهَا**».

ولا سهوَ على النَّاسخ، فالحديث مِمَّا اختلفَ

فيه رواةُ الموطَّأ، فرواه بعضهم مُرْسَلاً كأبي مصعب والقعنبي ومحمَّد بن الحسن وسويد، وآخرون مَوْصُولاً كيحيى اللَّيثيِّ، وقد بَيَّنْتُ ذلك في تحقيقي لكتاب «الإيماء» (٢/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣).

ثُمَّ ذكرَا ما تضمَّنته روايةُ أبي مصعب من الزِّيادات على روايةِ يحيى من الموقوف وأقوال التَّابعين وأقوالِ مالك، وليس من غَرَضِنَا في هذا المبحث.

فهذا مِمَّا يبيِّن أنَّ هذه الإحصائيَّة تحتاج إلى إعادة نَظَرٍ، ولا يمكن أن نَجْزِمَ بالفُرُوقاتِ بين الرِّوايتين إلاَّ إذا اعتمدنا على أصولٍ صحيحةٍ، وأقوالِ أهل العلم في الأحاديث، والنَّظَرِ فيها، خاصَّةً ما ذَكَرَ أبو العبَّاس الدَّاني في كتاب «الإيماء إلى أطراف الموطَّأ»، فإنَّه وضع كلَّ حديث موضعه من الموقوف والمرفوع والمرسل، والله أعلم بالصَّواب.

*** نُسَخُ الرِّواية المخطوطة والمطبوعة:**

وقفتُ لموطَّأ أبي مصعب على ثلاثِ نُسَخٍ خطيَّة، نسختان كاملتان، وثالثةٌ ناقصةٌ:

النُّسخة الأولى: أصْلُها محفوظٌ بمكتبة سالار جنك (الهِنْد)، ولها صورةٌ مصوَّرة بالجامعة الإسلامية برقم: (٧٠٣).

النُّسخة الثَّانية: أصلُها محفوظٌ بالظَّاهريَّة، ولها صورةٌ في الجامعة الإسلاميَّة برقم: (١٧٢٠)، وهذه النُّسخة ناقصة.

النُّسخة الثَّالثة: نسخةٌ مُصَوَّرَةٌ بالجامعة الإسلاميَّة برقم: (٤٠٨١).

*** المطبوع من هذه الرواية:**

طُبِعَتْ روايةُ أبي مصعب في الأعوام الأخيرة، بمُؤَسَّسة الرِّسالة ببَيْرُوت، وقام بتحقيق هذه الرِّواية د. بشَّار عواد، ومحمود خليل، وقد قاما بضبطِ نصِّ هذه النُّسخة، ومقابلتِها برواية يحيى اللَّيثيِّ، وتخريجِ أحاديثِها من طريق مالك من دواوين السُّنَّة، وترقيمِ نصوصِها، وإخراجِها بشكلٍ وحُلَّةٍ جيِّدة يستفيد منها طلبةُ العلم.

ولي على هذه النُّسخة عدَّةُ ملحوظاتٍ:

الأولى: أنَّ المحقِّقَين لَمْ يعتمدَا إلاَّ على النُّسخة الهنديَّة، وهي متأخِّرة، وللكتابِ عدَّةُ نسخ كما تقدَّم.

الثَّانية: أنَّ ناسخَ النُّسخة الهنديَّة أثبت الفروقاتِ بين رواية يحيى اللَّيثيِّ وهذه الرِّواية، فأغفلا تعليقاتِه.

الثَّالثة: أنَّهما ذكرَا بعض هذه التَّعليقات (وهي فروقات) داخل النَّص، ولا شكَّ أنَّ هذا خطأٌ جسيمٌ،



وتسوُّرٌ على رواية أبي مصعب، وكأنَّهما ظنَّا أنَّ تلك الفروقات التي يذكرها النَّاسخ لَحَقٌ وسَقْطٌ من رواية أبي مصعب فأثبتاها في النَّصِّ!!

منها:

ـ حديث: «**دَعْهُ فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ**».

اخْتَلَفَ فيه الرُّواةُ عن مالك، فَوَصَلَه جماعةٌ وأَرْسَلَه آخرُونَ، فَمِمَّنْ أَرْسَلَه أبو مصعب الزُّهريُّ كما في (ل: ١١١/ ب ـ نسخة مصوَّرة في الجامعة الإسلامية برقم: ٤٠٨١)، وكذا جاءت الرِّوايةُ مُرْسَلَةً في النُّسخة الهنديَّة (ل: ٢٣٠/أ) التي اعتمدها بشَّار عواد في تحقيقه، وأثبت النَّاسخ في الحاشية كلمةَ: «عن عبد الله» من رواية يحيى الأندلسي موضِّحًا الخلاف بين الرِّوايتين، ثمَّ جاء بشَّار عواد فنقل الحاشيةَ إلى الأصل (٢/ ٧٦) (رقم: ١٨٩٠) ظنًّا منه أنَّها سقطت من الأصل، والصَّواب إسقاطُ لفظة: «عن عبد الله»، والحديث عند أبي مصعب مُرْسَلٌ في هاتين النُّسختيْنِ. وقال الدَّارقطني: «أرسله القعنبي وأبو مصعب» «أحاديث الموطَّأ» (ص ١١).

ـ وحديث: «**لاَ يَصْبِرُ عَلَى لأَوَائِهَا وَشِدَّتِهَا...**»:

رواه مالك عن قَطَنِ بن وَهْب بن عُوَيْمِر بن الأَجْدَع، عن يُحَنَّس مَوْلَى الزُّبَيْر، عن ابن عُمَرَ.

ووقع عند بعضِ رواة «الموطَّأ»: «قطن بن وهب عن عُويمر» تَصَحَّفَ «بن» بـ «عن».

وهي رواية أبي مصعب الزُّهري (٢/ ٥٤) (رقم: ١٨٤٧)، وهي كذا في الأصل كما في النُّسخة الهندية (ل: ٢٢٤/ أ) وأَصْلَحَها المحقِّقان؟! فقالا في حاشيته: «في الأصل: عن، والصَّواب: بن».

قلت: الصَّواب من رواية أبي مصعب: «عن»، كما ثبت في النُّسخة الهنديَّة، وفي نسخة أخرى بالجامعة الإسلامية (برقم: ٤٠٨١).

وكذا جاء بالتَّصحيف عند بعض رواة «الموطَّأ»[١٨].

الرابعة: اعتمادهم في العَزْوِ على رواية يحيى المطبوعة بتحقيق محمَّد فؤاد عبد الباقي، وفيها من الأخطاء من حيث السَّقْطُ، وَوَصْلُ المرْسَلِ ما بيَّنته في مقال مفرد، وبالعكس من ذلك فقد يخطِّئون ما هو صوابٌ في المطبوع من رواية يحيى بزعم أنَّها لم تَتَّحد في الإسناد مثلاً مع رواية أبي مصعب وغيره.

مثاله حديث جابر بن عبد الله: «أنَّ رسولَ الله  نَحَرَ بَعْضَ هَدْيِهِ بِيَدِهِ...»، فهو في رواية أبي

مصعب (١/ ٥٣٤/ رقم: ١٣٨١) من مُسْنَدِ جابر، وتابعه أكثر الرُّواة، وقال فيه يحيى: عن علي بن أبي طالب، وتابعه القعنبي، فقال المحقِّقان في التَّعليق على الحديث: «في المطبوع من رواية يحيى: ٢٥٦ تحرَّف إلى: عليِّ بنِ أبي طالب، والصَّواب جابر بن عبد الله كما في التَّخريج»!

قُلْتُ: لو رَجَعَا إلى النُّسخ الخطيَّة، أو أقوال أهل العلم في الحديث كابن عبد البرِّ لوجدَا أنَّ ما ورد في المطبوع من رواية يحيى صحيحٌ[١٩].

هذه بعض أمثلة تُبَيِّنُ ما وقع فيه المحقِّقان لرواية أبي مصعب من أخطاءٍ في قراءة النَّصِّ والتَّعليق عليه، سَبَبُه عدمُ الرُّجوع إلى الأصول الخطيَّة الصَّحيحة من رواية يحيى اللَّيثيِّ، وكذا الرُّجوع إلى الأصول الخطيَّة من رواية أبي مصعب، والاكتفاء بنسخةٍ واحدة متأخِّرةِ النَّسخ، والكتابُ بحاجة إلى إعادة تحقيق ونَظَرٍ، والله أعلى وأعلم.

---

(١) «الجرح والتَّعديل» (١/ ٤٣).

(٢) «إتحاف السَّالك» لابن ناصر الدِّين (ص ١٧٤).

(٣) «تهذيب التَّهذيب» (١/ ١٧)، «الميزان» (١/ ٨٤)، «التَّقريب» (رقم ١٧).

(٤) «التَّاريخ» (٣/ ل: ١٥١/ أ).

(٥) «الميزان» (١/ ٨٤).

(٦) «تهذيب التَّهذيب» (١/ ١٨).

(٧) «ترتيب المدارك» (٣/ ٣٤٨).

(٨) «الإرشاد» (١/ ٢٢٨).

(٩) «تذكرة الحفَّاظ» (٢/ ٤٨٣).

(١٠) «تذكرة الحفَّاظ» (٢/ ٤٨٣).

(١١) «الغُنْيَة» (ص:٩٨)، «الصِّلَة» (١/ ٨٢).

(١٢) «التَّمهيد» (٢/ ٣٣٩).

(١٣) «بُغْيَةُ المُلْتَمِسِ» للعَلائِي (ص ٨٩)، «تذكرةُ الحفَّاظِ» (٢/ ٤٨٣).

(١٤) «مقدِّمة موطَّأ أبي مصعب الزُّهريِّ» (١/ ٤١).

(١٥) انظر: «الموطَّأ» ـ رواية يحيى اللَّيثيِّ ـ كتاب: البيوع، باب: بيع الغَرَرِ (٢/ ٥١٣/ رقم:٧٥). تحقيق فؤاد عبد الباقي، و (١٩٤١) بتحقيق بشَّار.

(١٦) انظر: «الإِيماء» (٣/ ٤٢٠).

(١٧) انظر ما ذكرته في «الإيماء» (٣/ ٦٠٩).

(١٨) انظر: «الإيماء» (٢/ ٥١٢)، وانظر أيضًا مثالاً آخر في «الإيماء» (٣/ ٥٤١).

(١٩) انظر: «الإيماء» (٢/ ٣٢٦).



منهجُ الدعوة والإصلاح

من قول الله جل وعلا: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾

حسان آيت علجت

إنَّ الدعوةَ إلى الله تعالى طريقُ الرُّسُل وأتباعِهِم، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]، كما أنَّها أحسنُ الأقوال والأحوال التي يكون عليها المؤمن، إذْ قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

ومن الآيات التي تناولَتْ هذا الموضوعَ ذَا الأهمِّيَّة البالِغَةِ، قوْلُ الله ﷻ في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦].

وسنقتصر على جُزْءٍ من الآية الثانية وهو قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾، هذه الجملة التي تضمَّنَتْ المنهج الذي ينبغي أنْ يسلُكَه الدَّاعي، في دعوته إلى الله تعالى، فإلى تفسير هذه الجملة:

أوَّلاً ـ قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾:

لأهل التفسير ثلاثة أقوال في معناها، ذكرها الماوردي في تفسيره (٣/ ٣٨٣)، **ومؤدَّاها كلُّها واحِدٌ وهو إخلاصُ الدِّينِ لله تعالى:**

فالأول: قول ابن عباس رضي الله عنهما: «إلى شهادة أن لاَّ إله إلا الله»؛ وهي كلمة الإخلاص، كما جاء في حديث عبد الرحمن بن أبزى رضي الله عنه مرفوعا: «**أَصْبَحْنَا على فِطْرَةِ الإسلام، وكَلِمَةِ الإخلاص، ودين نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، ومِلَّةِ أَبِينَا إبراهيمَ حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين**»[1].

والثاني: قول ابن عيسى: «إلى طاعة الله»، وأصْلُها ما أمَرَ به من الإخلاص، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وقال:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر: ١١].

والثالث: قول النقاش: «إلى الإسلام»، وفيه معنى السَّلامةِ التي هي الإخلاصُ، قال أهلُ اللُّغة[٢]: سلِمَ لي الشيء الفلانيُّ، أي: خَلُصَ لي، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]، أي عبدا خالصا لسيِّده، وفي هذا جاء قولُ الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٢٥] أيْ: أخْلَصَ العمل لله وحده لا شريك له، كما قال ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٨٥).

وهذا الإخلاصُ ينْبَغي أنْ يتحقَّقَ من جهتين: من جهةِ الدَّاعي نفسِه، ومن جهة الأمرِ المَدْعوِّ إليه.

أمَّا من جهة الدَّاعِي: فبأنْ يكونَ المقصودُ من دعوته تقريبَ النَّاس إلى ربِّهم ﷻ، ابتغاءَ وجْهِ الله تعالى، لا يُريدُ بذلك منهم جزاءً ولا شُكُورًا.

ويُخِلُّ بهذا الإخلاص أمران: حُبُّ الرِّيَّاسَةِ، وحُبُّ المال، وقد جَمَعَ بينهما رسولُ الله ﷺ في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه مرفوعا: «**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلاَ فِي غَنَمٍ، بِأَفْسَدَ لَهَا، مِنْ حِرْصِ المَرْءِ عَلَى المَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**»[٣]، وفي رواية أبي هريرة: «**مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ جَائِعَانِ بَاتَا فِي زَرِيبَةِ غَنَمٍ أَغْفَلَهَا أَهْلُهَا، يَفْتَرِسَانِ وَيَأْكُلاَنِ، بِأَسْرَعَ فِيهَا فَسَادًا مِنْ حُبِّ المَالِ وَالشَّرَفِ فِي دِينِ المَرْءِ المُسْلِمِ**»[٤]، كما جَمَعَ الله ﷻ بينهما في قوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٢٨ـ ٢٩]، وذكَرَ سبحانه مثالَيْنِ لمن ابتُلِيَ بهاتين الفتنتين في سورة القصص:

أمَّا الأوَّلُ: فهو فرعونُ المفتونُ بحُبِّ الرِّيَّاسَةِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

أمَّا الثاني: فهو قارونُ المفتونُ بحُبِّ المال، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]

فالفتنة الأولى: هي حُبُّ الشَّرَفِ والرِّيَّاسة: وهي الشهوة الخفيَّة التي حذَّر منها رسولُ الله ﷺ كما في حديث عبد الله بن زيد المازني رضي الله عنه مرفوعا: «**إنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الرِّيَاءَ، وَالشَّهْوَةَ الخَفِيَّةَ**»[٥]، قال الإمام أبو داود السجستاني فيما رواه عنه الخطيب في تاريخه (٤/ ١١٥): «**الشَّهْوَةُ الخَفِيَّةُ: حُبُّ الرِّيَّاسة**».

وتجِدُ المُبْتلى بهذا الأمر يدْعُو إلى نَفْسِه وتَعْظِيمِها، كما نبَّه على هذا الشيخُ محمَّد بن عبد الوهَّاب في «كتاب التوحيد»، فقال في مَعْرِضِ ذِكْرِ مسائلِ باب: (الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله): «الثانية: التنبيه على الإخلاص؛ لأنَّ كثيرا من النَّاس لو دعا



إلى الحقِّ، فهو يدعو إلى نفسه».

ونبَّه على هذا أيضًا العَلاَّمةُ عبدُ الرَّحمن السَّعدي في «تفسيره» (ص٦٦٧) فقال: إنَّ كَوْنَهُ ﴿ **وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ** ﴾ يستلزم إخلاصَ الدَّعْوَةِ إلى الله، **لا إلى نفْسِه وتعظيمِها، كما قَدْ يَعْرِضُ ذلك لكثيرٍ من النُّفُوسِ في هذا المقام.**

وسبَبُ هذا المرض أمرٌ آخرُ مُهْلِكٌ وهو: العُجْبُ، كما جاء في الحديث المرْوِيِّ عن جماعة من الصحابة من طُرُقٍ يَشُدُّ بعضُها بَعْضًا أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**ثلاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وهَوًى مُتَّبَعٌ، وإِعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ**»[٦].

ومِنْ العلامات الدالَّة على وُجُودِ هذه الآفةِ في الداعي أمورٌ منها:

ـ **كثرةُ الكلام عَنْ نَفْسِهِ على وَجْهِ الـمُبَاهَاة والتَّعَاظُمِ** لغَيْرِ حاجَةٍ تقْتَضيهِ، وذلك سَواءً بِذِكْرِ فضائله وأفْضَالِهِ على الدعوة، أو بذِكْرِ مَنْ عرَفَ من الشيوخ، وجَالَسَ من العلماء، وما له من التَّزكيات والإجازات.

نعم! قد يكون ذلك سائغًا إذا احتاج المدرِّس أو المعلِّم إلى ذلك ليطمئنَّ الطالب، وليُوَثِّقَ العِلْمَ الذي عنده بذِكْرِ أَصْلِه ومَصْدَرِه، أمَّا الإكثارُ من ذلك والتَّباهي به، فمنافٍ للإخلاص ألْبَتَّة، ولله درُّ الإمامِ الشافعيِّ القائلِ: «وَدِدْتُ أَنَّ كُلَّ عِلْمٍ أَعْلَمُهُ، يَتعَلَّمُهُ النَّاسُ: أُؤْجَرُ عَلَيْهِ ولا يَحْمَدُونَنِي»، والقائلِ: «وَدِدْتُ أَنَّ النَّاسَ تَعَلَّمُوا هذه الكُتُبَ، ولا يُنْسَبُ إِلَيَّ مِنْهَا شَيْءٌ» رواهما عنه ابن عساكر في «تاريخه» (٥١/ ٣٦٥).

ـ ومنها: **إرادةُ كوْنِ قولِهِ هو المقبولُ حقًّا كان أو باطلاً**: وذلك على طريقة: «عَنْزٌ ولو طارَتْ!» بخِلاَفِ الذي يدعو إلى الله فإنَّه لا يريدُ إلاَّ أن يقومَ دينُ الله تعالى، كما أفادَه الشيخ ابن عثيمين في «القول المفيد» (١/ ١٣٩).

ـ ومنها: **طَلَبُ عُيُوبِ أقْرانه وإخوانه**، والطَّعْنُ فيهم بالباطل، لينفردَ بالزَّعامَة والرياسة، كما ذكر ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٢/ ٣٤١) عن أبي بكر الخَلاَّل أنَّه قَال: «بَلَغَنِي أَنَّ أَحْمَدَ [ابن حنبل] قَالَ لِسُفْيَانَ [ابن عيينة]: حُبُّ الرِّيَاسَةِ أَعْجَبُ إِلَى الرَّجُلِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، **وَمَنْ أَحَبَّ الرِّيَاسَةَ طَلَبَ عُيُوبَ النَّاسِ**».

وفي الجُمْلَةِ فإنَّ المُبْتلى بحُبِّ الرياسة يطغى عليه قوْلُ: أنا، ونحن، وعندي، ولي، وهذا ممَّا حذَّرَ منه الإمام ابن القيم فقال في «زاد المعاد» (٢/ ٤٢٨):

«وَلْيُحْذَرْ كُلَّ الْـحَذَرِ مِنْ طُغْيَـانِ: «أَنـا»، وَ«لِي»، وَ«عِنْدِي»، فَإِنَّ هَذِهِ الأَلْفَاظَ الثَّلَاثَةَ ابْتُلِيَ بِهَا إِبْلِيسُ، وَفِرْعَـوْنُ، وَقَـارُونُ: فـ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [ص: ٧٦] لإِبْلِيسَ، وَ﴿لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ [الزخرف: ٥٢] لِفِرْعَـوْنَ، و﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ﴾ [القصص: ٧٨] لِقَارُونَ.

وَأَحْسَنُ مَا وُضِعَتْ «أَنَا» فِي قَوْلِ الْعَبْدِ: أَنَا الْعَبْدُ الْمُذْنِبُ، الْمُخْطِئُ، الْمُسْتَغْفِرُ، الْمُعْتَرِفُ، وَنَحْوُهُ، و«لِي» فِي قَوْلِهِ: لِيَ الذَّنْبُ، وَلِيَ الْجُرْمُ، وَلِيَ الْمَسْكَنَةُ، وَلِيَ الْفَقْرُ، وَ«عِنْدِي» فِي قَوْلِهِ: «**اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلّ ذَلِكَ عِنْدِي**[٧]»» اهـ.

وقد قيل في هذا المعنى شِعْرٌ:

أَرْبَـعَـةٌ مُـفْـسِـدَةٌ للعَـبْـدِ
نَـحْـنُ ولِيَ وأَنـا وعِـنْـدِي

ولا سبيـل إلى التخلُّصِ من هذا المرض العُضالِ إلاَّ بسلوكِ سبيلِ الأنبياء، وكبارِ أولياء الله تعالى من الصحابة ومن سار على هديهم، وذلك بالإزرَاءِ على النفس وكبْح جِمَاحِهَا.

ومن دُرَرِ ابنِ القيم ما ذَكَرَهُ في مَعْرِضِ الكلام عن تبرئة الله تعالى لأمِّ المؤمنينَ عائشةَ ﵂ من قول أهل الإفك، وذلك في كتابه «جِلاَءُ الأفهام» (٢٣٩ ـ ٢٤٠) فقال: «وتأَمَّلْ هذا التَّشريفَ والإكرامَ النَّاشِئَ عنْ فَرْطِ تـواضُعِهَا واستِصْغَـارِهَا لنفسها حيث قالت: «ولشأنِي في نفسي كانَ أحْقَرَ مِنْ أنْ يتكَلَّم اللهُ فيَّ بِوَحْيٍ يُتْلَى، ولكِنْ كُنْتُ أرجو أنْ يرَى رسولُ الله رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا»[٨]. فهذه صدِّيقَةُ الأمَّة، وأمُّ المؤمنين، وحِبُّ رسولِ الله، وهي تَعْلَمُ أنها بريئةٌ، مظلومةٌ، وأنَّ قاذفيها ظالمون لها، مفترون عليها، قد بَلَغَ أذَاهُم إلى أبَوَيْها، وإلى رسول الله ﷺ، وهذا كانَ احتقارُها لنَفْسِهَا، وتصغيرُها لشَأْنِها، فما ظنُّك بمن صام يوما أو يومين، أو شهرا أو شهرين، وقامَ ليلة أو ليلتين...» إلى أن قال: «وينبغي للعبْدِ أنْ يستعيذَ بالله أنْ يَكُـونَ عِنْدَ نَفْسِهِ عَظِيمًا وهـو عِنْدَ الله حَقِيرٌ» اهـ.

والفتنةُ الثانية هي حُبُّ المال: وذلك أنْ يكونَ في الدَّاعي نوْعٌ من طَلَبِ الأجْرِ على دَعْوَتِه، فإنَّ هذا مِنْ قَبِيلِ أكْلِ الدُّنيا بالدِّين، بل الواجبُ أنْ تكونَ له أسْوَةٌ في رسول الله ﷺ الذي لَمْ يَسْأَلْ على تبْليغِ رِسَالَةِ ربِّه أجْرًا ألبتَّة، بل أجْرُهُ على الله، كما قال الله تعالى: ﴿ **قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ** ﴿٨٦﴾ ﴾ [ص: ٨٦]، وقال: ﴿**قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ**﴾ [سبأ: ٤٧]، بل هذا هو دَيْدَنُ سائرِ المرسلين، فقد تكرَّرَ في سورة الشعراء قولُه

تعالى حكاية عن جُمْلَةٍ منهم: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠٩﴾ [الشعراء: ١٠٩].

وقد ذكر ابن القيِّم عِلاَجًا نافِعًا لهذَيْنِ الدَّاءَيْنِ الدَّوِيَّيْنِ المُهْلِكَيْنِ في كتابه «الفوائد» (ص١٤٩) فقال: «لا يجتمع الإخلاصُ ـ في القلْبِ ـ **ومحبَّةُ المَدْحِ والثَّنَاءِ، والطَّمَعُ فيما عِنْدَ النَّاسِ**، إلاَّ كما يجْتَمِعُ الماءُ والنَّارُ، والضَّبُّ والحُوتُ! فإذا حَدَّثَتْكَ نفسُكَ بطَلَبِ الإخْلاَصِ: فأَقْبِلْ على الطَّمَعِ ـ أوَّلاً ـ فَاذْبَحْهُ بِسكِّينِ اليَأْسِ، وأقْبِلْ على المَدْحِ والثَّنَاءِ فازْهَدْ فيهِمَا زُهْدَ عُشَّاقِ الدُّنْيَا في الآخِرَةِ، فإذا اسْتَقَامَ لَكَ ذَبْحُ الطَّمَعِ، والزُّهْدُ في الثَّنَاءِ والمَدْحِ: سَهُلَ عليْكَ الإخْلاَصُ، فإنْ قُلْتَ: وَمَا الَّذِي يُسَهِّلُ عَلَيَّ ذَبْحَ الطَّمَعِ، والزُّهْدَ في الثَّنَاءِ والمَدْحِ؟ قُلْتُ: أمَّا ذَبْحُ الطَّمَعِ، فَيُسَهِّلُهُ عَلَيْكَ: عِلْمُكَ يَقيناً أنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُطْمَعُ فيه إلاَّ وبِيَدِ الله وَحْدَهُ خَزائِنُهُ، لاَ يَمْلِكُهَا غَيْرُهُ، ولاَ يُؤْتِي العَبْدَ مِنْهَا شَيْئًا سِوَاهُ، وأمَّا الزُّهْدُ في الثَّنَاءِ والمَدْحِ، فَيُسَهِّلُهُ عَلَيْكَ: عِلْمُكَ أنَّه لَيْسَ أَحَدٌ يَنْفَعُ مَدْحُهُ ويَزِينُ، ويَضُرُّ ذَمُّهُ ويَشِينُ، إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ، كما قَالَ ذلك الأعْرَابيُّ للنَّبيِّ ﷺ: «إنَّ مَدْحِي زَيْنٌ، وذَمِّي شَيْنٌ!» فقال ﷺ: «**ذَلِكَ اللهُ عزَّ وجَلَّ!**»[٩]، فازْهَدْ في مَدْحِ مَنْ لاَ يَزِينُكَ مَدْحُهُ، وفي ذَمِّ مَنْ لا يَشِينُكَ ذَمُّهُ، وارْغَبْ فِي مَدْحِ مَنْ كُلُّ الزَّيْنِ في مَدْحِهِ، وكُلُّ الشَّيْنِ فِي ذَمِّهِ، ولَنْ يُقْدَرَ على ذلك إلاَّ بالصَّبْرِ واليَقِينِ، فمَتَى فَقَدْتَ الصَّبْرَ واليَقِينَ، كُنْتَ كَمَنْ أَرَادَ السَّفَرَ في البَحْرِ في غَيْرِ مَرْكَبٍ، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾ [الروم: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ [السجدة: ٢٤]» اهـ.

وأمَّا من جهة الأمْرِ المدْعُوِّ إليه: فإنَّ أوَّلَ شيءٍ، وأعظَمَ شيْءٍ يتعيَّنُ على الدَّاعي أنْ يدْعُوَ إليه هو: إخلاصُ الدين لله، وإفرادُه بالعبادة، وهذا هو توحيدُ القَصْدِ والطَّلَبِ الذي هو توحيدُ العبادة، أو توحيدُ الألوهية، وهذا هو حقُّ الله على العباد كما جاء في حديث معاذ رضي الله عنه في «الصحيحين» مرفوعا: «**حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»، وهو الأمْرُ الذي بَعَثَ الله به جميعَ أنبيائه ورُسُلِهِ، كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، و به ـ أيضًا ـ بدأ الأنبياءُ دعوة أقْوَامِهم، كما ذَكَرَ الله عنهم في غَيْرِ ما مَوْضِعٍ مِنْ كتابِه الكريم قولَهُم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وفي «الصحيحين» عن ابن عباس رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ لـمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إلى اليمن، قال: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُم إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ الله** (وفي رواية: **إلى أنْ يُوَحِّدُوا الله**)».

ثانيا ـ قوله تعالى: ﴿**بِإِذْنِهِۦ**﴾: ممَّا ينبغي أنْ يُعْلَمَ أنَّ الإذْنَ في كتاب الله نوعان: كَوْنِيٌّ، وشَرْعِيٌّ.

فالإذْنُ الكوني: هو بِمَعْنَى المَشِيئَةِ وَالخَلْقِ، ومِنْه قَوْلُهُ تعالى فِي السِّحْرِ: ﴿**وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ**﴾ [البقرة: ١٠٢] فَإِنَّ ذَلِكَ بِمَشِيئَةِ الله وَقُدْرَتِهِ، وَإِلاَّ فَهُوَ لَمْ يُبِحِ السِّحْرَ، وَقَوْلُهُ جل وعلا: ﴿**وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١٦٦] فَالَّذِي أَصَابَهُمْ مِنْ الْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ وَالْهَزِيمَةِ، كَانَ بمشيئتهِ، وإنْ كان لا يُحِبُّه ولا يرضاه.

وَالإِذْنُ الشَّرْعِيُّ: وَهوَ بِمَعْنَى الإِبَاحَةِ وَالجَوَاز أو المحبَّة والرِّضا، ومِنْ ذَلِك قَوْلُهُ تعالى: ﴿**مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ**﴾ [الحشر: ٥] فَإِنَّ هَذَا يَتَضَمَّنُ إبَاحَتَهُ لِذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: ﴿**مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ**﴾ [البقرة: ٢٥٥] ويتضمَّنُ رضاه عن الشافع والمشفوع له، وَقَوْلُه: ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ**﴾ [النساء: ٦٤] فهو سبحانه يُحِبُّ أنْ يُطَاعَ رُسُلُه ويَرضى بذلك، ومن ذلك أيضا هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿**وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ**﴾[10].

وقد ذكر المفسرون ثلاثةَ أقوالٍ لهذه اللفظة ذكرها الماوردي في تفسيره (٣/ ٣٨٣) ومردُّها كلُّها إلى أمرٍ واحدٍ أيضا وهو: بما شَرَعَهُ الله تعالى له، أي: إذْنُه الشَّرْعيُّ كما تقدَّم:

فالأول قول ابن عباس رضي الله عنه: «بأمْرِهِ»، وهو ما أَمَرَهُ الله به، وشَرَعَه له.

والثاني قول الحسن البصري: «بعِلْمِهِ»، وهو ما أنْزَلَهُ اللهُ تعالى عليه من العِلْمِ.

الثالث قول يحي بن سلام: «بالقرآن»، وهو أَصْلُ العِلْمِ الإلهيِّ الذي جاء به الرسول ﷺ.

فيتقرَّرُ من هذا أن الرَّسولَ ﷺ داعٍ إلى الله، بإذْنِ الله، لا مِنْ تِلْقاء نفسه، بل بما أنْزله اللهُ عليه من العِلْمِ والهُدَى والكِتَابِ المُنِيرِ، خِلافَ الذين ذمَّهُمُ الله تعالى وهم صِنْفَانِ[11]: صِنْفٌ ابْتَدَعُوا في دين الله، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ**﴾ [الشورى: ٢٧]؛ والصِّنْفُ الثاني حرَّمُوا ما أحلَّ



اللهُ، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يونس: ٥٩]، ومن هنا استنبط العلماء قاعدة أصولية عظيمة وهي: «الأصْلُ في العِبَادَاتِ الحظْرُ، والأصْلُ في العَادَاتِ الإبَاحَةُ».

وعليه فإنَّ لفظةَ: «بِإِذْنِهِ» تضمَّنَتْ توجيها للدَّاعي بِأَنْ يحقِّقَ في دعوتِهِ توحيدَ المتابعة للرسول ﷺ، وذلك من جهتين: من جهة وسائل دَعْوَتِه، ومن جهة مقاصِدِها:

أمَّا من جهة الوسائل: فيتعَيَّنُ على الدَّاعي أنْ يُرَاعِيَ في وسائل دعوته أنْ تكونَ مأذُونًا بها من الشارع، سواءً إِذْنَ تَنْصِيصٍ أو بدخولها تحت قاعدة عامَّة كالمباح.

وأمَّا من جهة المقاصد: فينْبَغِي على الدَّاعي أن يَحْرِصَ على دَعْوَةِ الناس إلى اتِّبَاعِ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وذلك بنَشْرِ ما صحَّ من سُنَّتِهِ، ودعْوَةِ النَّاس للتحاكُمِ إليها، وأن تُتْرَكَ أقوالُ الرِّجَال لها، وعلى النَّهْيِ عَمَّا يُضادُّ هذا الأصْلَ وهو: البِدَعُ والأهواء، والتحْذيرِ منها، وهو من تمام توحيد متابعة الرسول ﷺ؛ لأنَّه ما ابْتُدِعَتْ بِدْعَةٌ إلاَّ رُفِعَ مِثْلُهَا مِنَ السُّنَّة.

فتبيَّنَ حِينَئِذٍ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ يتضمَّنُ توجيها للدَّاعي أنْ تكونَ دعْوَتُهُ مُؤَسَّسَةً على الأمْرِ بشَيْئَيْنِ هما: توحيدُ الإخلاص، وتوحيدُ المُتَابَعَةِ، والتحذيرِ من ضِدَّيْهِا وهما: الشِّرْكُ، والبِدْعَةُ، وهما الأمران اللذان قال فيهما العلاَّمةُ ابن أبي العزِّ في «شرْحِهِ للطَّحاوية» (١/ ٤٤٧): «فَهُمَا تَوْحِيدَانِ لاَ نَجَاةَ لِلْعَبْدِ مِنْ عَذَابِ اللهِ إلاَّ بِهِمَا: تَوْحِيدُ المُرْسِلِ، وَتَوْحِيدُ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ».

والله تعالى أعلم.

---

(١) صحيح: رواه أحمد وغيره. «الصحيحة» (٢٩٨٩).
(٢) انظر: «لسان العرب» لابن منظور (باب: سلم و باب: شكس).
(٣) صحيح: رواه الترمذي وابن حبان. «صحيح الترغيب» (١٧١٠).
(٤) صحيح: رواه الطبراني وغيره. «صحيح الترغيب» (٣٢٥١).
(٥) حسن: رواه الطبراني وأبو نعيم. «الصحيحة» (٥٠٨).
(٦) حسن: رواه البزَّار والبيهقي وغيرهما. «الصحيحة» (١٨٠٢)
(٧) جزء من حديث متفق عليه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٨) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٩) صحيح: انظر «صحيح سنن الترمذي» (٣٢٦٧).
(١٠) انظر «فتاوى ابن تيمية» (١١/ ٢٦٧) و(١٤/ ٣٨٣).
(١١) انظر «فتاوى ابن تيمية» (١٥/ ١٦١).

أهمية دراسة السيرة النبوية

توفيق عمروني

الحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّه الكريم وعلى آله وصحبه الأخيار الطَّاهرين؛ وبعد:

فإنَّ من سديد القول وجميل الحكم قولهم: «إنَّ الأمَّة التي لا تحفظ تاريخها لا تستطيع أن تحفظ حاضرها ومستقبلها»، ذلك لأنَّ حفظ التاريخ هو حفظ جذور الأمَّة وأصولها ومآثر رجالها وسابق أيَّامها، فالتاريخ يُعَدُّ ذاكرة الأمم والشعوب، لذلك حرصت أمم الأرض قاطبة على تدوين ماضيها ورسم أمجادها والاحتفاء بتاريخها؛ ولو كان مليئا بالجور والظلم والجهل والأحداث المؤلمة؛ لأنَّ المهم في ذلك أن يُدرس ويُعرف فيُستخرج منه الدروس والعبر، ويكون نبراسًا يستضاء به للتعامل مع الأحداث في الحاضر والمستقبل، كما تحرص كل أمَّة من الأمم اليوم على تربية النشء على حفظ تاريخ أمَّته وترسيخ معرفته، ليكبر الجيل على حبِّ أسلافه والافتخار بأصوله والاعتزاز بماضيه.

ولا غرو أن يعتني أهل الإسلام بتاريخهم، ويهتمُّوا بحفظه ويجدُّوا في صيانته، ونقله للأجيال المتلاحقة، وما ذاك إلَّا لأنَّ درَّة تاريخ هذه الأمة وتاجه وفاتحته هو سيرة نبيِّهاﷺ.

وعليه؛ اعتنى العلماء بالسِّيرة النَّبوية العطرة منذ فجر الإسلام وبدأوا تدوينَها في القرن الأوَّل، وتتابعوا على التَّأليف فيها في كتب مفردة شاملة لجميع أبواب السيرة أو بعضها أو في ضمن مصنَّفات تحوي موضوع السيرة والمغازي وغيرها[1]،



لذا قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وهذا الفنُّ مما ينبغي الاعتناء به، والاعتبار بأمره، والتهيُّؤ له»[٢].

بل درج السَّلف رضي الله عنهم على حث أبنائهم على تعلُّم السيرة النَّبوية والغزوات؛ وعلَّموهم إيَّاها في الصغر قبل الكبر، قال علي بن الحسين زين العابدين: «كنَّا نُعَلَّمُ مغازيَ النَّبي ﷺ كما نُعَلَّم السُّورةَ منَ القرآنِ»[٣].

وقال إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص: «كانَ أبي يُعلِّمُنا مَغازيَ رسُولِ الله ﷺ ويَعُدُّها عَلينا، وسَرَاياهُ؛ ويقولُ: هَذه مَآثِر آبائكُم فلا تضيِّعُوا ذِكْرَها»[٤].

وهذا لإدراكهم أهمية هذا العلم وحاجة الناس إليه، وضرورة رسوخه في الأذهان، ونحن اليوم أيضًا في أشدِّ الحاجة إلى هذا العلم لنبيِّن للعالم أجمع جمال وصفاء ديننا الحنيف وسيرة نبينا الكريم ﷺ الذي تجرَّأ على الطعن فيه وسبِّه والتشكيك في نبوَّته كثيرٌ من أوباش الكفَّار في مواطن من أصقاع الأرض، فكان لزاما على المسلم الحريص على خير نفسه وغيره أن يلمَّ بسيرة نبيِّه ﷺ ، ويتعلَّم ما يجب أن يتعلَّمه منها، ليكون على بيِّنة من أمره، وليعرف بذلك قدْرَ نبيِّه الذي أوجب الله عليه حبَّه واتباعَه وطاعتَه، وسدَّ جميع الطرق إلى الجنَّة إلاَّ طريقَه، خاصةً وأنَّ الله تعالى سيمتحنه به، ويسألُه في أوَّل نزوله القبرَ، فيقول له المَلَكان: «ما هذا الرَّجلُ الذي بُعِث فيكم؟»[٥]، فعلينا أن نُعدَّ للأمر عُدَّته وللسُّؤال جوابه.

فالسيرة النَّبوية العطرة لا تُقرأ للتسلية والترويح عن النفس، ولا في المناسبات والأعياد والموالد للتباهي والتبرُّك والاكتفاء بذلك؛ وإنَّما تقرأ السيرة لأخذ العبر واستخراج الدُّرر، واستنباط الفوائد والنكت، ونَصبها نبراسا يستضيء بنورها كلُّ مؤمن في هذه الحياة، يجد بها طريق الهداية.

وإليك أخي القارئ في هذا المقام بعض ما يجتنيه دارس السيرة النبوية من فوائد:

ـ تحقِّقُ له معرفةَ نبيِّه ﷺ معرفةً تفصيليَّةً، فيعرف مولدَه ونسبَه وأسماءَه ونشأته ووفاته، وسيقف على أحوالِه وأوصافِه وشمائِله وخصائصه ودلائل نبوتِه ومعجزاتِه وسياستِه وتدبيرِه وجميعِ غزواتِه وسراياه؛ ولابدَّ أن تورِّثَ هذه المعرفة في النُّفوس حبَّه ﷺ وإجلالَه وتوقيرَه وتعظيمَه، ثمَّ إنَّ

هذه المحبَّة ستدفعُ بالعبد إلى متابعته في هديه والاقتداء به في سيرته؛ وهذه المحبة وهذا الاقتداء والمتابعة هو أجلُّ ما يجتنى من دراسة سيرة النبيِّ ﷺ؛ لأنَّ فيه تحقيقَ الإيمان الذي يوجبُ تقديمَ حبِّ الله ورسوله ﷺ على جميع المحبوبات، وتحقيقَ مقصودِ الرسالة النَّبوية بالاقتداء والاتساء به ﷺ، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وبذلك يسعَدُ العبد في الدنيا والآخرة، قال ابن القيِّم في «زاد المعاد» (١/ ٦٩): «وإذا كانت سعادةُ العبدِ في الدَّارين مُعلَّقةً بهدْي النَّبيِّ ﷺ ، فيجب على كلِّ من نَصح نفسَهُ، وأحبَّ نجاتَها وسعادتَها، أن يعرفَ من هَديِه وسِيرتِه وشأنِه مَا يَخْرُجُ به عن الجاهلين بهِ، ويدخلُ به في عِداد أتباعِه وشِيعته وحِزبه، والنَّاس في هذا بين مُستقِلٍّ، ومُستكثِرٍ، ومحرومٍ، والفضلُ بيد الله يُؤتيه من يشاء، والله ذو الفَضل العَظيم».

ـ تزيد في قوَّة الإيمان واليقين والثَّبات على الدِّين، فإذا طالع المرء ما قاساه النبي ﷺ في دعوته لقومه وما عانى من عنادهم واستهتارهم وتسفيههم له ومحاولة التخلص منه وإخماد دعوته بجميع ما تمكنوا منه من وسائل، وما أصاب الصَّحابة الأوائل الذين اتبعوه في ساعة العسرة من شدَّة المناوءة والمعارضة، ومن التعذيب والاضطهاد وأصناف الأذى والظلم، وأنواع الشَّتم والسِّباب من القريب والبعيد، ثمَّ لم يزدهم هذا كلُّه إلَّا تمسُّكا بدينهم وثباتا على عقيدتهم، سيجد بذلك المطالع لأحداث السيرة قوة إيمان، وزيادة يقين من أنَّ الإسلام حقٌّ، وأنَّ رسولَه ﷺ حقٌّ، وأنَّ الصحابة رضي الله عنهم هم أشرف هذه الأمَّة.

قال ابن حزم في كتابه «الفِصل في الملل والنحل» (٢/ ٧٣): «فإنَّ سيرةَ محمَّدٍ ﷺ لمن تدَبَّرها تقتَضي تَصدِيقَه ضَرورةً؛ وتَشهَدُ له بأنَّه رسُولُ الله ﷺ حقًّا؛ فلَو لم تكنْ لَه مُعجزةٌ غيرَ سيرتِه ﷺ لكَفَى».

ـ تبعث في نفس المؤمن الدارس لها زيادة اعتزاز بدين الإسلام وقوة حجة؛ لأنَّك إذا وقفت على شمائل هذا النَّبي الكريم ﷺ الحميدة وأوصافه الجميلة من شجاعة ورباطة جأش، وكرم وجود،



ورفق في مواطن اللِّين والرفق، وشدَّة في مواطن الشدَّة والحزم، وحسن سياسة وتدبير، وقوَّة في الصدع بالحقِّ والدعوة إليه، والحرص الشديد على هداية الخلق، ومعاملة جميع أصناف الناس ـ مؤمنِهم وكافرِهم، وصغيرِهم وكبيرِهم، وذكرِهم وأنثاهم، وعبدِهم وحُرِّهم، وشَريفِهم ووضيعِهم، ومُسالِمِهم ومحاربِهم ـ كلٌّ بما يليق به من غير إفراط ولا تفريط، فلن تجد منه ﷺ إلَّا العدلَ والرحمة والإحسان في كلِّ أحواله وأوقاته؛ في الحرب والسلم، في الأمن والخوف، في الرخاء والشدة.

فيدرك دارسُ السِّيرة أنَّه أمامَ أَعْظَم رجل عرفه البشر على الإطلاق، إذ لم يبلغ مرتبته أحد من الناس فهو سيِّد ولد آدم عليه السَّلام، وعَلم بذلك أيضا أنَّ الإسلام جاء بالحكمة، والرحمة والسلام والوئام، وأنَّه جاء بكل خير وإصلاح، محذِّرًا من كلِّ شرٍّ وإفساد.

ـ تنيرُ دربَ السَّالك لسبيل الدَّعوة إلى الله؛ لأنَّها التَّطبيقُ العمليُّ للإسلام، وهنا مربَطُ الفَرَس كما يقال، حيثُ إنَّ هذا الجانب من السيرة تناوله الدارسون للسِّيرة بخلفيات عَلِقت بأذهانهم ومناهج ترسَّخت في عقولهم، فالحَرَكيُّ لا يرى السيرة إلَّا أسلوبا من أساليب السياسة، والثوريُّ لا يرى فيها إلا الغزوات والقتال، وهكذا..، ولو صفت أذهان هؤلاء وتجرَّدت عقولهم من الأحكام المُسبَقة، وصدقت قلوبهم في طلب الحقِّ لوجدوا أنَّ السيرة النبويَّةَ تمثِّلُ التَّطبيقَ العمَليَّ للإسلامِ بجميع جوانبه، وأنَّها الأسلوبُ الأمثلُ والأكملُ في الدَّعوة إلى الله وإصلاحِ المجتمعاتِ، إذ سيجدُ الدَّاعيةُ بغيتَه بتأمُّل أحوال وأطوار هذه السيرة العطرة، ففي حال الضَّعفِ ـ مثلًا ـ والعيشِ تحت وطأة الكفَّارِ وسيطرتِهم فمأخذُه العهدَ المكيَّ، وفي حال الظُّهورِ والتَّمكين فلينظر إلى العَهدِ المدنيِّ، لكن لا يكون ذلك على إطلاقِه، ولا بمعزَلٍ عن فُهوم العلماء الكبار، وتوجيههم لتلك الأخبار والآثار، وتصويبهم لهذه المدارك والأنظار.

والذي يجدر التنبيه إليه في هذا المقام أنَّ المتأمِّل في السيرة سيجد أنَّ قطب رحى الأمر كله هو الدَّعوة إلى توحيد الله عزَّ وجل والنَّهي عن ضده،

إذ لم يَغفل عنه النبي ﷺ في جميع أحواله في ضعفه وقوته، في سلمه وحربه، في خوفه وأمنه، في ظعنه وإقـامته، فكذلك ينبغي على الداعية أن لا يشرد ذهنه عن التوحيـد أبدًا، وأن يجعله أوَّلَ دعوتِه وآخرَهَا.

ـ تُعينُ على فَهم كتاب الله تعالى؛ إذ أنَّ فيها تفسيرًا وبيانًا لكثير من آي القرآنِ الكريم، وتوضيح معانيها بتفصيل، كالآيات التي تحدَّثت عن الغزوات في سورة آل عمران، والتوبة والأحزاب والفتح والحشر...؛ فمعظم سورة الأنفال يتحدث عن غزوة بدر، وغالب سورة التوبة يتحدث عن غزوة تبوك، وسورة الحشر فيها الحديث عن جلاء يهود بني النضير، وفي سورة آل عمران آيات كثيرة عن غزوة أحد؛ كما أنَّ في السيرة النبويَّة بيانا لكثيرٍ من أسبابِ النزولِ.

وبهذا يظهر صدق كلام الخطيب البغدادي حين قال: «تتعلَّقُ بمغازِي رسُولِ الله ﷺ أحكامٌ كثيرةٌ، فيَجِبُ كَتْبُها والحِفْظُ لها»(٦).

نعم؛ يـجب كتابةُ السِّيرة النبويَّة وحِفظها والاهتمامُ بها ودراستُها بعنايةٍ فائقةٍ، لكن وَفقَ منهج علميٍّ رَصينٍ كما يقرِّره علماء الحديث والسنة المعتبرين؛ والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) كالبخاري ـ رحمه الله ـ ضمَّن كتابه «الجامع الصحيح» كتاب المغازي.

(٢) «البداية والنهاية» (٣/ ٢٤٢).

(٣) رواه الخطيب البغدادي في «الجامع» (٢/ ١٩٥)، وانظر: « البداية والنهاية» (٣/ ٢٤٢).

(٤) رواه الخطيب البغدادي في «الجامع» (٢/ ١٩٥).

(٥) في حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ الطويل؛ أخرجه أبوداود وأحمد، وهو صحيح؛ انظر: «صحيح الجامع» (١٦٧٦، ٢٥٥٦).

(٦) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ١٩٥).

تزكية النفوس
أهميتها ووسائلها

عمر حمرون

إنَّ أهم ما ينبغي للناس أن يتعاهدوه تزكية نفوسهم، ولا سيما في هذه الأزمان المتأخرة التي استحكمت فيها الشهوات، وارتطمت فيها أمواج الفتن والشبهات، والتي لم يسلم منها إلا من عصمه الله جل وعلا.

والحديث عن تزكية النفوس كما لا يخفى طويل الذيول، ولذلك فسأقتصر في كلامي عليه على ثلاث نقاط:

معنى تزكية النفس لغة وشرعًا، ثم أهمية التزكية، وأخيرا وسائل تزكية النفس.

*** معنى التزكية:**

التزكية لغة: الطهارة والنماء والزيادة.

والمراد بها في الشرع: تطهير النفوس وإصلاحها بالعلم النافع والعمل الصالح، وفعل المأمورات وترك المنهيات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في معرض حديثه عن أمراض القلوب وشفائها: «والزكاة في اللغة النماء والزيادة في الصلاح، يقال: زكا الشيء إذا نما في الصلاح، فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح، كما يحتاج البدن أن يربَّى بالأغذية المصلحة له، ولا بدّ مع ذلك من منع ما يضرّه فلا ينمو البدن إلَّا بإعطائه ما ينفعه ومنع ما يضره، كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره، وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا» اهـ[1].

وقد ثبت في تفسير التزكية عن رسول الله ﷺ ما رواه الطبراني في «المعجم الصغير» وغيره عن عبد الله بن معاوية الغاضِري رضي الله عنه أن رسول الله

ﷺ قال: «ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ ذَاقَ طعْمَ الإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ فِي كُلِّ عَامٍ... وَزَكَّى نَفْسَهُ»، فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: «أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ»[٢].

* تزكية النفوس وأهميتها:

لقد تظافرت نصوص الكتاب والسنة ببيان أهمية تزكية النفوس وما لها من مكانة عالية ومنزلة رفيعة، ولعل من أبرز تلك النصوص وأظهرها قوله تعالى في سورة الشمس: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ١-١٠].

فتأمل معي أيها القارئ الكريم في هذه الآيات البينات تجد أن الله عز وجل قد أقسم فيها أحد عشر قسما على أن صلاح العبد وفلاحه منوط بتزكية نفسه.

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في موضع آخر من الكتاب: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى: ١٤-١٥].

كما أخبر الله جل وعلا بفوز من حقق هذه التزكية بالدرجات العلى، فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾ [طه: ٧٥-٧٦].

وقد جاء في القرآن الكريم ما يدل على أن مهمة الرسل كانت دعوة الناس إلى تزكية نفوسهم، قال تعالى لموسى في خطابه لفرعون: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ [النازعات: ١٨].

وقال سبحانه عن نبينا محمد ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

* وسائل تزكية النفس:

قبل الخوض في تفاصيل وسائل التزكية لا بدَّ من العلم أن تزكية النفوس لا سبيل إليها إلا عن طريق الشرع المطهر باتباع ما جاءت به الرسل عن رب العالمين جل وعلا.

وقد أشارت آية الجمعة السابقة إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ [الجمعة: ٢].

قال ابن القيم: «فإن تزكية النفوس مُسلَّم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاَّهم إياها،



وجعلها على أيديهم دعوة وتعليما وبيانا وإرشادا... فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم... وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجئ بها الرسل فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم، والله المستعان» اهـ[٣].

وتزكية النفوس تتحقق بأمور كثيرة، ومن أهمها ما يلي:

١ ـ التوحيد: وقد سماه الله تعالى زكاة في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾﴾ [فصلت: ٦ ـ ٧] وهذا التفسير مأثور عن البحر ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: لا يشهدون أن لا إله إلا الله[٤].

قال ابن القيم رحمه الله: «قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب وذلك طهارته وإثبات إلهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء»... إلى أن قال: «فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد» اهـ[٥].

كما سمى الله تعالى الشرك رجسا ووسمه بالنجاسة، قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

فدل مفهوم الآيتين على أن الطهارة والتزكية في التوحيد الخالص لله جل وعلا.

ولذلك قال موسى لفرعون وهو يدعوه إلى التوحيد: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٨ ـ ١٩].

٢ ـ الصلاة: وهي من أعظم ما تزكو به النفوس ولذلك قرن الله تعالى بينها وبين التزكية في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤ ـ ١٥].

وقد شبه النبي ﷺ تطهير الصلاة للنفوس بتطهير الماء للأبدان فعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْس مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ[٦] شَيْءٌ؟**» قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: «**فَذَلِكَ مَثل الصَّلَوَات الخَمْس يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الخَطَايَا**»[٧].

وعن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «**مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْس كَمَثَلِ نَهرٍ جَارٍ غَمْرٍ[٨] عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْس مَرَّاتٍ**»[٩].

٣ ـ **الصدقة**: قال تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا**﴾ [التوبة: ١٠٣].

قال الشيخ السعدي: «وفيها أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها؛ لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها» اهـ[١٠].

٤ ـ **ترك المعاصي والمحرمات**: قال تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا** ﴿٩﴾﴾ أي: زكى نفسه بفعل الطاعات، ثم قال: ﴿**وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴿١٠﴾﴾ أي: خسر من دساها بالفجور والمعاصي.

قال شيخ الإسلام: «فكذلك النفس والأعمال لا تزكو حتى يزال عنها ما يناقضها، ولا يكون الرجل متزكيا إلا مع ترك الشر، فإنه يدنس النفس ويدسيها»[١١].

وقال تلميذه ابن القيم: «والمقصود أن زكاة القلب موقوفة على طهارته، كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة، قال تعالى: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴿٢١﴾﴾ [النور: ٢١]، ذكر ذلك سبحانه عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدل على أن التزكي هو باجتناب ذلك» اهـ[١٢].

٥ ـ **محاسبة النفس**: قال ابن القيم: «فإن زكاة (النفس) وطهارتها موقوف على محاسبتها، فلا تزكو ولا تطهر ولا تصلح ألبتة إلا بمحاسبتها...» إلى أن قال: فبمحاسبتها يطلع على عيوبها ونقائصها فيمكنه السعي في إصلاحها» اهـ[١٣].

٦ ـ **الدعاء**: على العبد أن يلجأ إلى الله تعالى بالدعاء والتضرع ليصلح له نفسه ويزكيها ولذلك كان من دعاء نبينا ﷺ: «**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا**»[١٤].

وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

---

(١) «المجموع» (١٠/ ٩٦).
(٢) «الصحيحة» (١٠٤٦).
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٥٦).
(٤) انظر: «المجموع» لشيخ الإسلام (١٠/ ٦٣٣).
(٥) «إغاثة اللهفان» (١/ ٤٩).
(٦) أي: وسخه.
(٧) رواه البخاري (٥٢٨) ومسلم (٢٨٣) واللفظ له.
(٨) الغَمر: هو الكثير.
(٩) رواه مسلم (٢٨٤).
(١٠) «تفسير السعدي» (٣/ ٢٩٣).
(١١) «المجموع» (١٠/ ٦٢٩).
(١٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٤٩).
(١٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٥٧٦).
(١٤) رواه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم.

فتاوى شرعية

د/ محمد علي فركوس

في كتابة اسم الميت على قبره

*** السـؤال:**

ما حكم وضع شاهدين من مادة الإسمنت على القبر، يُكتب على أحدهما اسم المتوفى لتعليم قبره لئلاَّ يشتبه بقبر آخر؟ وبارك الله فيكم.

*** الجـواب:**

الأصل أنه لا يجوز بناء القبور وتجصيصها، والكتابة عليها، والقعود عليها، لـما أخرجه مسلم وغيرُه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «**نَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُجَصَّصَ القَبْرُ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ أَوْ يُزَادَ عَلَيْهِ، أَوْ يُكْتَبَ عَلَيْهِ**»[1]، وفي حديث أبي الهياج الأَسْدِيِّ قال: «قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: أَلاَ أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ، أَن لاَ تَدَعَ تِمْثَالاً فِي بَيْتٍ إِلاَّ طَمَسْتَهُ، وَلاَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلاَّ سَوَّيْتَهُ»[2].

هذا، وإن كان أهل العلم يكرِّهون الكتابة على القبر مطلقًا إلاَّ أنهم يستثنون ما تدعو الحاجة إليه كالتعرُّف على القبر بأن يكتفى بكتابة اسم الميت لا على سبيل الزخرفة، إلحاقًا قياسيًّا على «**وَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ الحَجَرَ عَلَى قَبْرِ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ**»[3]، وهو من تخصيص عمـوم النهي بالقيـاس وهو جـائز عند الجمهور.

غير أنه يُقتصر على أدنى ما يحصل به التعرُّف عليه إذا خشِيَ زوالَه أو نسيانَه سواء بكتابة اسمه فقط أو رقمه العددي من غير الزيادة عليه ببناء أو غيره جريًا على قاعدة: «مَا جَازَ لِعُذْرٍ بَطَلَ بِزَوَالِهِ»، وهذا إذا تعذَّر تعليمه بحجر ونحوه، كلّ ذلك

سعيًا لتحقيق الغاية التي من أجلها وَضَع رسولُ الله ﷺ الحجرَ على قبر عثمان بن مظعون رضي الله عنه وهي قوله: «**أَتَعَلَّمُ بِهَا قَبْرَ أَخِي، وَأَدْفِنُ إِلَيْهِ مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِي**»(٤)؛ والعلمُ عند الله تعالى.

في مدى مساواة كفالة اللقيط باليتيم في الأجر

*** السـؤال:**

هَلْ تعدلُ كفالة اللقيط ومجهولِ النَّسَبِ وتربيتُه نفسَ أجرِ كفالةِ اليتيمِ التي حَثَّ عليها الرسولُ عليه الصلاة والسلام؟ وجزاكم الله عنَّا كُلَّ خير.

*** الجـواب:**

اليتيم هو الصغير الفاقد للأب، واللقيطُ هو ولدٌ حديثُ الولادة نَبَذَهُ أهلُه خوفًا من مسؤولية إعالته أو فرارًا من تهمة الزنا، أو ضلّ الطريق فلا يُعْرَفُ أبوه ولا أُمُّه، أو لسبب آخر، ولا كافلَ له معلومٌ، والتقاطه من أفضل أعمال البرِّ وهو فرضٌ على الكفاية إلاَّ إذا خاف هَلاَكَهُ فَفَرْضُ عَيْنٍ.

واليتيم واللقيط ومجهولُ النَّسَبِ يدخلون في معنى إحياء النفس بالرعاية الصحية من الإنفاق والعناية التربوية والتعليمية، وإن كانوا يختلفون من جهة الولاية والإنفاق فالولاية على اللقيط في ماله ونفسه للسلطان أو نائبه وكذلك الإنفاق من بيت المال، لحديث: «**السُّلْطَانُ وَلِـيُّ مَنْ لاَ وَلِيَّ لَهُ**»(٥)، أمّا الملتَقِطُ فليس له إلاَّ حقّ التربية والحفظ لكـونه منفعة محضة في حقِّـه، وبهذا السبب لا تثبت له الولاية، وعلى كلٍّ فإنَّ الملتقط يستحقُّ أجر ومثوبة كافل اليتيم لحديث: «**أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ والوُسْطَى وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا**»(٦)، لأنه في معناه، ولم يختلف العلماء في أنَّ الرجل إذا ضمَّ إليه يتيمًا أو لقيطًا في أنه محمود في دين الله تعالى، كما لا يختلفون في عدم جواز تبني اللقطاء والأطفال مجهولي النسب بحجّة الرحمة والعطف أو لكون المرأة عاقرًا أو الرجل عقيمًا، فهذه الأسباب لا تبيح التبني ولا تجعله حلالاً، بل يبقى على حرمته، ولا تترتَّب عليه أحكام البُنُوَّةِ الحقيقية، فهؤلاء إن كانوا مجهولي الآباء الحقيقيين فإنَّ الأخوَّة في الدين والموالاة فيه عوض لهم عمَّا فاتهم من النسب لقوله تعالى: ﴿**ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ**﴾ [الأحزاب: ٥]؛ والعلمُ عند الله تعالى.

❁❁❁

في حكم المتاجرة
بمواد تحمل علامات تجارية مزوَّرة

*** السـؤال:**

ما حكم المتـاجرة في السلع ذات علامات تجارية مزورة (غير الأصلية)؟ وما حكم شرائها؟

*** الجـواب:**

إن كانت هذه البضاعة المعروضة للبيع تحمل علامات تجارية لشركات أخرى لم ترخص فيها فإن ذلك يُعد اعتداءً على حقّ الابتكار الصناعي وعلى العنوان التجاري، وهي داخلة في الحقوق المالية، والأصلُ في الأموال التحريم إلاَّ ما كان بطيب نفس من أصحابها لقوله ﷺ: «**لاَ يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلاَّ بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ**»(٧)، والشأن في ذلك كشأن كلّ الحقوق الذهنية والعينية والتبعية، وعليه إن كانت له هذه البضائع التي لم يعلم حقيقتها أو حكمها فإنّه يتخلّص منها ثمّ لا يرجع إلى المتاجرة فيها، أمّا إذا لم يقبضها بعدُ فينبغي التخلي عن التعامل بها، علمًا أنّ أبواب الرزق واسعة، وليتخير منها ما ينشر به الفضيلة، ويحقق به الرزق الطيب الحلال.

أمّا المشتري إذا أضحى معطَّلاً لفقدان بعض اللوازم التي يحتاجها لأدواته وآلاته وسيارته، ولم يجد الأصلي من المواد المصنعة وقطع الغيار إلاَّ ما راج مغشوشًا من المواد ذات الحاجة الأكيدة فيجوز ـ برضاه ـ أن يشتري المغشوش والمعيب، ولو اطلع عليه وعلم به للحاجة، «**والحَاجَةُ تُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الضَّرُورَةِ عَامَّةً كَانَتْ أَوْ خَاصَّةً**»؛ والعلمُ عند الله تعالى.

في ضوابط قاعدة
«الضرورات تبيح المحظورات»

*** السـؤال:**

ما هي ضوابط الضرورة التي تبيح المحظور؟ وجزاكم الله خيرًا.

*** الجـواب:**

الضرورة هي الحالة التي تَطْرَأُ على العبد من الخطر والمشقَّة الشديدة بحيث يخاف حدوثَ ضَرَرٍ أو أذًى بالنفس أو بعُضْوٍ من أعضائه أو بالعرض أو بالعقل أو بالمال، أي: إذا لم تُرَاعَ خِيفَ أن تضيع مصالِحُه الضروريةُ؛ لأنّ الضرورة ذات صِلة مباشرة بالضرر الذي الأصل فيه التحريم، فيجوز للمضطرِّ الإقدامُ على الممنوع شرعًا كارتكاب

الحرام أو ترك واجب أو تأخيره عن وقته دفعًا للضرر عنه في غالب ظنّه ضِمْنَ قُيُودِ الشرع وضوابطه الآتية البيان، ويسقط عنه الإثم في حقّ الله سبحانه دفعًا للحرج عنه، ولكن يبقى تعويض حقّ غيره على ما لحقهم من ضرر قائمًا رفعًا للحرج عنهم.

وقيودُ الشرع وضوابطه تتمثّل فيما يلي:

أولًا: أن تكون الضرورةُ قائمةً بالفعل لا متوهَّمةً ولا منتظرةً ولا متوقَّعةً، لأنّ التوقُّعَ والتوهُّمَ لا يجوز أن تُبنى عليهما أحكامُ التخفيف.

ثانيًا: أن تكون الضرورةُ مُلْجِئَةً بحيث يخشى تلف نفس أو تضييع المصالح الضرورية وهي حفظ الضروريات الخمس: الدين، النفس، المال، العقل، العِرْض.

ثالثًا: أن لا تكون للمضطر لدفع الضرر عنه وسيلة أخرى من المباحات إلَّا المخالفات الشرعية من الأوامر والنواهي.

رابعًا: أن يقتصر المضطر فيما يباح للضرورة على القدر اللازم لدفع الضرر أي الحدّ الأدنى فيه، لذلك قُيِّدت قاعدة «**الضَّرُورَاتُ تُبِيحُ المَحْظُورَاتِ**» بقاعدة متفرِّعة: «**تُقَدَّرُ الضُّرُورَاتُ بِقَدَرِهَا**».

خامسًا: أن يكون وقت الترخيص للمضطر مقيَّدًا بزمن بقاء العذر، فإذا زال العذر زال الترخيص والإباحةُ، جريًا على قاعدة: «**إِذَا زَالَ الخَطَرُ عَادَ الحَظْرُ**» أو قاعدة: «**إِذَا زَالَ المَانِعُ زَالَ المَمْنُوعُ**» أو قاعدة: «**مَا جَازَ لِعُذْرٍ بَطَلَ بِزَوَالِهِ**».

سادسًا: أن يكون الضررُ في المحظور الذي يَحِلُّ الإقدامُ عليه أنقصَ من ضرر حالة الضرورة، فإن كان الضرر في حالة الضرورة أنقص أو يساويه فلا يباح له كالإكراه على القتل أو الزنا فلا يباح واحد منهما لما فيه من المفسدة الراجحة إذ ليس نفس القاتل وعِرضه أولى من نفس المقتول وعِرضه.

ومن ذلك لا يجوز نَبْش قبرِ الميِّت الذي لم يكفَّن لغرض تكفينه؛ لأنّ مفسدة هتك حُرمته أشدّ من مفسدة عدم تكفينه، الذي قام القبر مقامه.

سابعًا: أن لا يكون الاضطرار سببًا في إسقاط حقوق الآدميِّين؛ لأنَّ الضرر لا يزال بمثله، إذ «**الضَّرَرُ يُزَالُ بِلاَ ضَرَرٍ**» و«**لاَ يَكُونُ الاِضْطِرَارُ مُبْطِلاً لِحَقِّ الغَيْرِ**» فما لحق الغير من أضرار يلزمه تعويضها عنهم.

ثامنًا: أن لا يخالفَ المضطرُّ مبادئَ الشريعةِ الإسلاميةِ وقواعدَها العامّةَ من الحفاظ على أصول



العقيدة وتحقيق العدل وأداء الأمانات، فكلّ ما خالف قواعدَ الشرع لا أَثَرَ فيه للضرورة؛ لأنّ المضطرّ يُخالف بعض الأحكام الشرعية لا قواعدَ الشريعةِ العامّةَ.

وحتى يصحّ الأخذ بقاعدة: «**الضَّرُورَاتُ تُبِيحُ المَحْظُورَاتِ**» فلا بدَّ من مراعاة هذه الشروط والقيود لتخطِّي أحكام التحريم والإيجاب بسببها؛ والعلمُ عند الله تعالى،

في الطعام

الذي يصنعه الحاج عند عودته من سفره

* **السـؤال:**

جرت العادة عندنا أنَّ الحاجَّ إذا أراد الذهاب إلى الحجِّ صنع طعامًا ودعا الأقارب والأحباب والجيران إليـه، ويفعل الشيء نفسه عند عـودته وتسمَّى هذه الدعوة عندنا بقولهم: «عشاء الحاج»، فنرجو منكم بيانَ حكم صنع هذا الطعام، وبارك الله فيكم.

* **الجـواب:**

الطعام المعدّ عند قدوم المسافر يقال له «النقيعة»، وهو مشتق من النقع ـ وهو الغبار ـ لأنّ المسافر يأتي وعليه غبار السفر، وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ: «**أَنَّهُ لَـمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ نَحَرَ جَزُورًا أَوْ بَقَرَةً**»[8] والحديث يدلّ على مشروعية الدعوة عند القدوم من السفر[9]وقد بوَّب له البخاري: باب الطعام عند القدوم، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يُفطِر لـمن يغشاه[10]، أي: يغشـونه للسلام عليه والتهنئـة بالقدوم، قال ابن بطال في الحديث السابق: «فيه إطعام الإمام والرئيس أصحابه عند القدوم من السفر، وهو مستحب عند السلف، ويسمى النقيعة، ونقل عن المهلب أن ابن عمر رضي الله عنهما كان إذا قدم من سفر أطعم من يأتيه ويفطر معهم، ويترك قضاء رمضان لأنه كان لا يصوم في السفر فإذا انتهى الطعام ابتدأ قضاء رمضان».

هذا، ومذهب جمهـور الصحـابة والتابعين وجوب الإجابة إلى سائر الولائم وهي على ما ذكره القاضي عياض والنووي ثمان[11]منها: «النقيعة» مع اختلافهم هل الطعام يصنعه المسافر أم يصنعه غيره له؟ ومن النص السابق والأثر يظهر ترجيح القول الأول.

وعليه، فإذا صَنَعَ العائدُ مِنْ سَفَرِهِ من الحجِّ طعامًا ودَعَا إليها شكرًا للمُنعِم على ما أنعم عليه بالحجِّ وسلامة العودةِ إلى بلده وأهله، فإنه تُلَبَّى

دعوته بناءً على ما تقدّم في مسألة «النقيعة» ما لم يُعلم بقرائنِ الأحوالِ أنَّ دوافعَ الإطعامِ مَبْنِيَّةٌ على حُبِّ المحمدةِ والظهورِ والتفاخُرِ أو الخُيَلاَءِ كَقَرِينَةِ تركه سُنَّةَ الأضحية والعقيقة المذكورتين بالنصوص الحديثية؛ فإنَّه في هذه الحال لا تجب عليه تلبية الدعوة وشهودها.

أمَّا إعداد الطعام قبل السفر فلا يُعلم دخوله تحت تعداد الولائم المشروعة؛ لأنَّها وليمة ارتبطت بالحجِّ وأضيفت إليه، و«كُلُّ مَا أُضِيفَ إِلَى حُكْمٍ شَرْعِيٍّ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ يُصَحِّحُهُ»؛ والعلمُ عند الله تعالى.

❁❁❁

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٤٥)، وأبو داود (٣٢٢٦)، والنسائي (٢٠٢٧)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٣)، وأبو داود (٣٢١٨)، والترمذي (١٠٤٩)، والنسائي (٢٠٣١)، وأحمد (٧٤٣)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٥٦١)، من حديث أنس رضي الله عنه، قال الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١/ ٤٩٨): «حسن صحيح».

(٤) أخرجه أبو داود (٣٢٠٦)، والبيهقي (٦٨٤٣)، من حديث المطلب بن عبد الله بن حنطب رضي الله عنه، والحديث حسنه الألباني في «الصحيحة» (٧/ ١٦١).

(٥) أخرجه أبو داود (٢٠٨٣)، والترمذي (١١٠٢)، وابن ماجه (١٨٧٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وحسنه الألباني في «الإرواء» (١٨٤٠).

(٦) أخرجه البخاري (٥٦٥٩)، وأبو داود (٥١٥٠)، والترمذي (١٩١٨)، من حديث سهل ابن سعد رضي الله عنه.

(٧) أخرجه الدارقطني (٣٠٠) وأحمد (٥/ ٧٢) وأبو يعلى والبيهقي (٦/ ١٠٠)، والحديث صحَّحه الألباني في «الإرواء» (٥/ ٢٧٩) رقم (١٤٥٩)، وفي «صحيح الجامع» (٧٥٣٩).

(٨) أخرجه البخاري (٢٩٢٣)، وأبو داود (٣٧٤٧)، وأحمد (١٣٩٢٢)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٩) «عون المعبود» للعظيم آبادي (١٠/ ٢١١).

(١٠) «فتح الباري» لابن حجر (٦/ ١٩٤).

(١١) «شرح مسلم» للنووي (٩/ ١٧١)، «تحفة المودود» لابن القيم (١٢٧)، «نيل الأوطار» للشوكاني (٦/ ٢٣٨).



الشيخ أبو يعلى الزواوي

الملقب بـ «شيخ الشباب وشاب الشيوخ»

عز الدين رمضاني

*** اسمه ونسبه:**

هو أبو يعلى الزواوي، نسبة إلى الزواوة، واشتهر بهذا، واسمه الحقيقي سعيد بن محمد الشريف بن العربي بن يحيى بن الحاج من آيت سيدي محمد الحاج بزواوة.

*** مولده ونشأته:**

ولد أبو يعلى الزواوي عام ١٨٢٦ ميلادية بقرية تدعى «إغيل إنزكري»، وهذه القرية غير قريته الأصلية، وإنما انتقل إليها أبوه بعد أن عُيِّن إماما لمسجدها، وبها تزوج، فوالدته منهم وكانوا من الشرفاء ومن أهل الخير والكرم.

وأما قرية أبيه وجده فتسمى: «تفريث نيث الحاج» وتقع على سفح جبل «تامقوت» الشامخ في دائرة عزازقة بـ «تيزي وزو»، ومعناها بالعربية، كما شرحها هو في كتابه «جماعة المسلمين» (ص٣٤): «عرين ذوي الحاج» والعرين في اللغة العربية مأوى الأسد.

وهي قرية ذات طبيعة خلابة وأشجار كثيفة ومياه عذبة، وكان يضرب بها المثل في عنايتها بالقرآن وحفظه، وقد ذكر أبو يعلى نفسه أن نسبة تسعين بالمائة منهم يحفظون القرآن؛ منهم الفلاح والراعي والعامل، وهذا على خلاف ما كانت عليه بعض القرى المجاورة حيث لا يقرأ عندهم إلا المرابطون والشرفاء، وهذه مشابهة لقضية الإفرنج النصارى لا يقرأ التوراة والإنجيل إلا الرهبان والملوك.

*** نشأته العلمية:**

تتلمذ أبو يعلى الزواوي على يد والده، فأخذ عنه الفقه والقراءات والنحو، ثم زاول تعليمه بزاوية عبد الرحمن الأيلولي الكائنة بمنطقة «عزازقة»، ولم

يكن راضيا على طريقة ونوعية التعليم فيها، مؤيدا في ذلك رأي شيخه محمد بن زكري مفتي الجامع الأعظم، الذي درس بالزاوية نفسها، وقضى فيها عشر سنوات دون أن يستفيد شيئا حيث دخلها حافظا للقرآن كما يقول وخرج منها حافظا للقرآن.

والذي يظهر أن أبا يعلى الزواوي ـ ومن خلال بعض مؤلفاته ـ قد بذل جهدا لا يستهان به في تحصيل العلم وبناء ثقافته من خلال مطالعته لكتب كثيرة ذكرها في ثنايا تآليفه، يشهد لذلك أسلوبه البديع وبيانه الساحر في كتاباته لا سيما خطبه التي كانت في معظمها مرتجلة.

وكان إلى جانب ثقافته العربية وشغفه بلغة العرب وآدابها، واعتزازه بعلوم الشريعة ـ من فقه وتوحيد وحديث وتفسير وتمكنه منها ـ، عارفا باللغة الفرنسية تعلَّمها على يد مدير السجن الذي كان أبو يعلى يعلمه اللغة العربية، حيث حكم عليه بالسجن لمدة سبع سنوات بسبب حادثة وقعت له في شبابه.

وبما أن أبا يعلى من منطقة الزواوة، ويتكلم بلسانها، فقد أرّخ للمنطقة بأن ألف كتابا أسماه «تاريخ الزواوة» نشره في دمشق عام ١٩٢٤م، خلص فيه إلى كون البربرية حميرية الأصل، وله في ذلك استشهادات لغوية وتاريخية، وهذا مما يثبت أن له انشغالا واهتماما باللغات واللهجات، وقد كتب فعلا مقالات في التعريف بلغة البربر وقواعدها ونحوها ونشرها في المجلة السلفية بمصر بطلب من الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله.

ومما زاده تمكنا وتبصرا بأحوال أمته الدينية والسياسية والاجتماعية، وسما بفكره إلى الاشتغال والاهتمام بقضايا بلده سفره إلى الشام ثم إلى مصر والتقاؤه بالعديد من رجالات الإصلاح وأصحاب الفكر والساسة.

*** أقرانه وشيوخه:**

ذكر معظمَهم هو بنفسه في مؤلفاته المطبوعة، ونذكر منهم جملة على سبيل المثال خاصة أولئك الذين تأثر بهم:

١ ـ والده الشيخ محمد الشريف الذي كان إماما ومؤذنا وموثقا وصاحب مدرسة قرآنية.

٢ ـ الشيخ محمد سعيد بن زكري، خطيب مسجد «سيدي رمضان» بالجزائر العاصمة، ومفتي الجامع الأعظم، ويعد من أبرز مدرسي العاصمة، ومن الفقهاء المتمكنين من علمهم، وقد تأثر أبو يعلى به أيما تأثر وكان متبعا لسيرته في العلم.

٣ ـ الشيخ محمد بن بلقاسم البوجليلي المولود



سنة ١٨٣٦، وقد نوه به وبعلمه العلامة البشير الإبراهيمي، ووصفه ابن زكري شيخ أبي يعلى وصديقه: «أنه كان من المصلحين ودعاة القضاء على البدع التي كانت تساعد على نشر الشعوذة والخرافة»، وقال عنه تلميذه أبو يعلى: «أن الشيخ ابن زكري كشيخه البوجليلي ذكاء وشهرة».

٤ ـ العلامة المحدث الشيخ طاهر الجزائري وقد مكث معه خمس سنوات كاملة في أرض مصر.

ومن أقرانه في العلم والدعوة الذين أعجب بهم وكانت له معهم صداقة ومودة، وكثيرا ما يذكرهم بلفظ «الصاحب» أو «الصديق» الشيخ رشيد رضا، والشيخ محمد الخضر حسين، ومحمد كرد علي، وأمير البيان شكيب أرسلان، ومن أهل بلده: الشيخ مبارك الميلي، والشيخ الطيب العقبي.

*** أعماله ووظائفه:**

تقلد أبو يعلى مناصب مختلفة في حياته بحكم ثقافته المزدوجة إن صح التعبير، فقد عُين كاتبا بالقنصلية الفرنسية بدمشق وعمل بها إلى حوالي ١٩١٥م، أرسلته فرنسا إلى سوريا طمعا منها في أن يقوم بإقناع الجزائريين المقيمين هناك بالتجنس لتفادي رجوعهم إلى أرض الوطن خوفا من حمل الأفكار التحررية التي قد ظهرت بالشام، ومقابل ذلك وعدته فرنسا بمنصب الإفتاء إذا رجع إلى الجزائر.

ومن خلال إقامته بسوريا اتصل بالعديد من الشخصيات والكتاب والأدباء والسياسيين والصحفيين، وأقام علاقات معهم، وأسهم بمقالاته في بعض الصحف والمجلات، ثم انتقل إلى القاهرة بسبب وقوع الحرب العالمية، وهناك التقى بالشيخ طاهر الجزائري، وكثف نشاطه بمصر وتعرف بالعديد من إخوانه الطلبة الجزائريين وواصل مشاركته في تحرير المقالات معرِّفا بالجزائر وتاريخها وواصفا أحوالها المزرية، وكانت له فعلا إسهامات تمثلت في نشر مقالات في جريدة «البرهان» التي كان يصدرها الشيخ عبد القادر المغربي، وفي المجلة السلفية بمصر أيضا.

ومما يلفت الانتباه أن الشيخ أبا يعلى انتقد المشارقة وهو فيهم لقلة اهتمامهم بأحوال المغرب العربي.

وعند عودته إلى الجزائر سنة ١٩٢٤ بقي بنفس الهمة العالية والروح الأبية، يكتب وينتقد، ويكافح وينافح بقلمه السيال وفكره الجوال، فكتب في صحيفة «صدى الصحراء» التي كانت تصدر ببسكرة (جنوب الجزائر) على غرار زملائه

كالطيب العقبي والشاعر محمد العيد ومحمد الأمين العمودي، كما شارك في جريدة «الثمرة الأولى» التي كان يصدرها طلبة الجزائر في تونس.

ومن الوظائف التي أسندت إليه وكان لها أهلا تعيينه إماما بمسجد «سيدي رمضان» بالجزائر العاصمة، حيث تولى الخطابة فيه (من سنة ١٩٢٠ إلى سنة ١٩٥٢ وهو تاريخ وفاته)، وكان يعتبر ذلك من منن الله عليه.

وقد كان ـ رحمه الله ـ خطيبا مفوها، يرتجل الخطب، ويبلغ بها مقصده من إفهام السامع والأخذ بمجامع القلوب، وقد شهد له بذلك كثيرون منهم أحمد توفيق المدني الذي قال عنه: «وأشهد أنه قد كان لتلك الخطب الأثر الفعال في النفوس»، وقبل ذلك قال عنه: «أخرج الخطب المنبرية من صيغتها التقليدية العتيقة إلى صيغة قومية مفيدة، فهو يخطب للعامة ارتجالا في مواضع إسلامية محلية مفيدة، ويعتبر خطابه درسا بحيث لا ينتهي منه إلا وقد اعتقد أن كل من بمسجد «سيدي رمضان» من رجال ونسوة قد فهموا جيد الفهم خطابه».

وقد جدد طريقة السلف في الخطابة، فالتزم أن تكون الخطبة من إنشائه هو لا من إنشاء الآخرين، ودون ورقة أي ارتجالا، ثم بدا له بعد ذلك أن يدوّن خطبه لكيلا يقال عنه إنّه سرقها من غيره وحفظها.

ومن الأعمال العظيمة والوظائف الشريفة التي لم يفوتها أبو يعلى على نفسه رئاسته لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حيث عين رئيسا للجمعية العمومية المكلفة بوضع القانون الأساس للجمعية، وقد حضرها اثنان وسبعون من علماء القطر الجزائري وطلبة العلم، اجتمعوا بنادي الترقي بعاصمة الجزائر لتعيين الأعضاء الأساسيين المكونين لجمعية العلماء الجزائريين، وهذه الرئاسة وإن كانت مؤقتة انتهت بانتهاء أشغال التأسيس إلا أنها تعدّ حدثا له قيمته ووزنه في حياة الشيخ أبي يعلى الزواوي.

إضافة إلى هذه الأعمال كلها، فإنه كان مجيدا للخط العربي وله فيه رسالة، وكان ينسخ المصاحف ويحفظها، وقد ورث ذلك عن أبيه، جمع في خطه بين الروح الجزائرية والتعريقة الشرقية رغم قوله أنه تأثر بالخط الفاسي الموروث عن الأندلس.

ولتفننه وإتقانه للخط أعجب به كثيرون، ومدحه بشير الرابحي بقصيدة على خطه في المصحف الشريف.

*** مؤلفاته وآثاره العلمية:**

ترك أبو يعلى الزواوي آثارا علمية نافعة

ضمنها خلاصة ما يؤمن به من أفكار، وما كان يطمح إليه من مشاريع جادة تخدم بالدرجة الأولى دينه ولغته العربية، ورغم أن جل هذه المؤلفات جاءت في شكل كتيبات أو رسائل مختصرة إلا أنها حوت في مضامينها ذلك البعد العميق في تفهم قضايا أمته عامة، والتشبت الوثيق بمكونات شخصية الأمة الجزائرية خاصة، ساعده في ذلك روعة أسلوبه وانتظام أفكاره وكثرة استدلاله بالنصوص الشرعية في كتاباته الدينية، واستعماله ـ وهذا لفرط ذكائه ونباهته ـ لألفاظ ومصطلحات يمرر من طريقها أفكاره ويبرز فيها طموحه ويختصر بها أقواله ويعالج من خلالها الأدواء والأمراض التي شخَّصها بنفسه، وخير مثال لذلك تسميته لكتابين ألفهما وأبدع فيهما، أطلق على أحدهما: «الإسلام الصحيح» تمييزا له عن الإسلام الذي سماه العلامة الإبراهيمي بالإسلام الوراثي، وأطلق على الآخر: «جماعة المسلمين» تحريضا منه على لَمِّ شعث الأمة واستقلالها بنفسها دون تدخل أو وصاية من المستعمر.

وهذه نبذة مختصرة عن بعض مؤلفاته:

أولا ـ «كتاب الإسلام الصحيح»: وطبعه في مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٥هـ بعد رجوعه إلى الجزائر، وجعله في شكل سؤال وجواب.

ثانيا ـ «جماعة المسلمين»: وهو عبارة عن رسالة مطوّلة في شأن جماعة المسلمين ومعناها في الفقه المالكي وفي أصلها من الأحاديث الصحيحة[١].

وقد قرظ كتابه هذا الشيخ الطيب العقبي ـ رحمه الله ـ، وذكر في تقريظه اثني عشر بيتا، نقلها أبو يعلى إلى كتابه «جماعة المسلمين» (ص٤٧) ومطلع هذه الأبيات:

أبو يَعلى إمَـامُ الـحَقِّ فِـينَا
وشَيْخٌ في شَبَابِ المُصْلِحِينَا

ثالثا ـ «تاريخ الزواوة»: وحدد خطوطه العريضة سنة ١٩١٢، وكتبه سنة ١٩١٨م، وهو في القاهرة ونشره في دمشق سنة ١٩٢٤م[٢]، وطبع الآن بمراجعة وتعليق سهيل الخالدي من منشورات وزارة الثقافة.

وذكر أبو يعلى أن له كتابا بعنوان: «أصل البربر بزواوة» بين فيه أن أصل البربر من حمير، وأنهم عرب قحطانيون أو عرباء، وهل هو نفس الكتاب الأول أم هو كتاب آخر؟[٣].

رابعا ـ «الخطب»: جمع فيه خطبه، وكان ذلك سنة

١٣٤٣هـ الموافق لسنة ١٩٢٤م، (طبع باستيد ـ جوردان ـ كاربونيل ١٣٤٣هـ) يحتوي على ٧٨ صفحة.

خامسا ـ «فصول في الإصلاح»[٤]: ذكره ضمن كتابه «الخطب» و«تاريخ الزواوة».

سادسا ـ «الخلافة قرشية»: والكتاب لم يطبع إلى الآن[٥].

سابعا ـ «أسلوب الحكيم في التعليم»: ذكره أبو يعلى في بعض كتبه، والظاهر أنه غير مطبوع[٦].

ثامنا ـ «الفرق بين المشارقة والمغاربة في اللغة العربية وغيرها»: وقد ذكره بنفسه بين مؤلفاته[٧].

تاسعا ـ «ذبائح أهل الكتاب»: ذكره ضمن كتابه «الخطب» وغالب الظنِّ أنه لم يطبع[٨].

عاشرا ـ «مرآة المرأة المسلمة»: وقد ذكر مؤلفه أنه يقع في حدود ٢٠٠ صفحة، ضمنه آراءه في المرأة، مبطلا عادات بني قومه في عدم توريثها ومنع نظر الخاطب إليها، ومناديا بضرورة تربيتها وتعليمها[٩].

حادي عشر ـ «الكلام في علم الكلام»: وقد أشار إليه في «مجموع مؤلفاته»، ويجهل هل طبع أم لا[١٠].

هذا، وقد ألف أبو يعلى الزواوي كتبا صغيرة الحجم في قضايا مهمة لها صلتها الوثيقة بالأمة والمجتمع في تلك الحقبة، مصححا للمفاهيم ومدافعا عن معالم الشخصية الإسلامية، ومساندا للإصلاح وداعيا إلى تطهير المعتقدات والسلوكات من الشوائب والبدع والخرافات[١١].

*** عقيدته ومنهجه:**

المتتبع لمقالات الشيخ أبي يعلى الزواوي يجد اهتماما بالغا بالموضوعات التي كانت ترتبط بحياة الأمة في تلك الحقبة، وبالأوضاع المزرية التي آل إليها حال الأمة الجزائرية خاصة، من انتشار البدع والخرافات وفساد الاعتقادات وسوء الأخلاق وتحكم الجهال وإقامة أعراس الشيطان التي كانت تشد إليها الرحال من كل مكان، ويقع فيها من المنكرات والفضائح والرذائل ما يستحي العاقل من ذكره.

فكان لزاما أن يقوم المصلحون والغيورون على الدين والقيم بإصلاح ما فسد، وتقويم ما اعوج، وإحياء ما مات من مقومات الدين وعقائده وشرائعه، فانتدب لهذه المهمة الشاقة ـ وكان لها أهلا ـ أبناء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومنهم الشيخ أبو يعلى الزواوي ـ رحمه الله ـ الذي ـ كغيره من علماء الجمعية ـ بنى دعوته في الإصلاح والتغيير على الكتاب والسنة والدعوة إلى منهج



السلف الصالح وعقيدة أهل السنة والجماعة، وحذَّر من مغبة الطرائق والمناهج المنحرفة والمخالفة لما كان عليه أهل الصدر الأول.

قال ـ رحمه الله ـ مشيدا بطريقة السلف في العقيدة والتوحيد: «إن خير طريقة في العقيدة التوحيدية طريقة السلف التي هي اتباع ما ثبت عن الله وعن رسوله من غير كثرة التأويل والدخول في الأخذ والرد من الجدل في المتشابه وإيراد الشبه والرد عليها» [«الإسلام الصحيح» (ص٤)].

وقال معتزا ومفصحا عن عقيدته ومتبرئا من كل ما خالفها: «أما أنا ومن على شاكلتي من إخواني الكثيرين فلا شريعة لنا ولا دين ولا ديوان إلا الكتاب والسنة وما عليه محمد وأصحابه وعقيدة السلف الصالح أي فلا اعتزال ولا ماتريدي ولا أشعري وذلك أن الأشاعرة تفرقوا واختلفوا أي المتقدمون منهم والمتأخرون، ووقعوا في ارتباك من التأويل والحيرة في مسائل يطول شرحها لم تصف بعد فعلام؟ وقل آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ٩١]»[«الإسلام الصحيح» (ص٩٤)].

وأرجع أسباب تفرق الأمة وتمزقها إلى تبني التعاليم والمذاهب المخالفة لمنهج الإسلام الصحيح، والتغافل والتعامي عن منهج الفرقة الناجية التي هي أسعد الفرق بالاتباع والاقتداء بسنة سيد الأنام ﷺ، فقال: «إن كثرة التفريق والاختلاف في التعاليم الدينية مزّق الأمة كل ممزق، وهذا مما أدركه كل مسلم جاهلا كان أو عالما، فلزم إذن عدم التفرق وذلك إنما يكون بتوحيد التعاليم قديما وحديثا وهو أمر صعب ولكن على غير العاملين بحديث النجاة وهو قوله ﷺ: «إلا واحدة وهي ما أنا عليه وأصحابي» فعلام نغفل هذا أو نتعامى ونعمل بمائة مذهب وبألف ملة وطريقة» [«الإسلام الصحيح»: (ص١١٧)].

والحقيقة أن الناظر في كتابات الشيخ أبي يعلى الزواوي لا يكاد يقرأ فقرة من فقرات مقاله إلا وظهر له مدى اعتنائه بعقيدة السلف الصالح ورجوعه إليها وحسن دفاعه عنها، ومحاربته ما خالفها من العقائد المنحرفة والباطلة ببيان عوارها وتجلية حقائقها ليحذرها الناس، كما يتجلى ذلك واضحا في كتابيه المشار إليهما في مطلع الحديث عن مؤلفاته.

*** نماذج من غرر أقواله وكتاباته:**

وهي كثيرة مبثوثة في ثنايا تآليفه، ممتعة في

مضامينها وشيقة في أسلوبها، حاكى فيها البلغاء، وألبسته حلية الفقهاء، وهو فيها بين سابق مجتهد وبين متبع مؤيد، لكن دون تقليد أو محاكاة، إذ النهب والسلب ليس من شيمه، ولذلك دوّن خطبه وهذا من قِيَمه، وإليك بعض النماذج من أقواله على سبيل المثال:

أولا: افتتاحه كتاب «جماعة المسلمين» بخطبة الحاجة مشيدا بالاتباع ومحذرا من الابتداع فبعد نقله للخطبة: «إن الحمد لله؛ نحمده ونستغفره ونتوب إليه...»، قال: «لم يثبت أن رسول الله ﷺ خطب بغير الحمد مستفتحا، ولا كاتب بغير البسملة مبتدئا، ولا قرأ بغير التعوذ تاليا، فلنتمسك بهذا؛ فعلام العدول عنه إلى جملة «الحمد لله وحده» الشهيرة في المغرب فنعما هي، ولكنها من طرة دولة الموحدين وشعارهم وهي دولة كما علمنا أنها ذات زيغ ودانت بعصمة الإمام نزغة رافضية، والمهدوية الكاذبة، ومن جهل هذا فليراجع كتاب الاعتصام»[١٢].

ثانيا: جوابه على من سأله: «كيف وقعت المغالطات والمنكرات المبتدعة في الدين الإسلامي؟»، وبعد أن أرجع الأسباب إلى عاملين؛ الأول: الجهل، والثاني: دسائس أعداء الإسلام، ثم ذكر فضائح الرافضة ومكايد الباطنية وكشف عوارهم، فقال[١٣]:

«فتأمل أيها السائل كيف وقعت هذه المنكرات التي أدهشتك، وكيف سرت وتسربت إلى الأنام وامتزجت بالأجسام وهي أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين! واحذرهم أن يفتنوك عن الإسلام الصحيح وأصوله المعتبرة، وإياك أن تلتزم ما لا يلزم، أو تسأل عن أشياء إن تبد لك تسؤك، واعتبر قول أنس بن مالك المتقدم نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ وذلك معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ [المائدة: ١٠١].

ثالثا ـ استنباطه معجزة للنبي ﷺ:

قال ـ رحمه الله ـ كما في كتابه «الإسلام الصحيح» (ص١٢): «كنا جلوسا ذات يوم في دار وطنينا الأمير عبد الله نجل الأمير عبد القادر الجزائري بالشام، وكان صديقنا العلامة الكاتب الشيخ محمد الخضر نجل السيد علي بن عمر حاضرا على سبيل الزيارة أيام العيد، فتجاذبنا أطراف الحديث إلى أن أدى بنا إلى معجزات النبي ﷺ، فاقتنع كل واحد منا بنوع من المعجزات الكثيرة الغرر، فقلت لهم: إن

من أعظم معجزاته ﷺ التي بهرتني تصريحه بأن «لا نبي بعده» الثابت في «الصحيحين»، وذلك أنه ﷺ قد انفرد بهذا القول عن إخوانه المرسلين الذين لا يحصون عدا ولم يقل أحد من الأنبياء بهذا، فلولا أنه محقق أنه نبي وأنه من الله لما قال «لا نبي بعدي» وذلك أنه لم يضطره إلى ذلك القول شيء ولم يطالبه به أحد وأنه في وسعه أن لا يقول ذلك وأنه يسعه ما وسع الأنبياء قبله، إذ لم يقولوا به، ولو علم من نفسه أنه ليس بنبي مرسل، ومؤيد من عند الله، لما قال ذلك وهو الفطن الحذق، وهذا أيضا عين برهان أن القرآن من عند الله كلامه جل شأنه ولو كان من تأليفه ﷺ لما أثبت فيه «خاتم النبيين» لأنه أيضا غير مضطر إلى ذلك القول الذي لم يقله إخوانه الأنبياء الذين قبله، ألا يسعه ما وسعهم، ولكنه لعلمه وتحققه أنه مرسل من عند الله صدع بما علم عن ربه فثبت ذلك، أي أنه لا نبي بعده، فاستحسن الحاضرون هذه النظرية وهذا الاستنباط، ولما رجع صديقنا المذكور الشيخ محمد الخضر إلى تونس في سفرته الأولى إلى الشام كتب رحلته تلك في جريدة «الزهرة» وذكر هذه الجملة باستحسان وبالله التوفيق لا رب غيره ونبينا لا نبي بعده» اهـ.

رابعا: وسئل ـ رحمه الله ـ عن دليل وجود الله وحال المنكر له، فقال ضاربا مثلا رائعا واقعيا تهضمه الأفهام ولا تنكره الأسماع: «وأزيدك أيها السائل هنا برهانا آخر على وجوده لتكتفي وهو أن الخط في الكتابة يدل دلالة قطعية على الخطاط الكاتب، ومثل العبد الذي يعترف بالخط والكتابة وينكر وجود الخطاط الكاتب كمثل النملة التي تجري على قرطاس الكاتب، فترى الخط والكتابة ولم يمكن لها أن ترفع رأسها لترى الكاتب فتنكر وجوده لذلك ولكن لا يلتفت إليها، وكثر هذا الضرب من الناس في هذا الزمَن...» [«الإسلام الصحيح» (ص٤)].

خامسا: في رده لكرامات الأولياء المزعومين المخالفين للشرع وافتتان العامة بها إلى حد جاوز المعقول وطغى على المنقول، مستعملا الأسلوب الساخر الموافق لعقولهم الهزيلة ومعتقداتهم الهشة، قال ـ رحمه الله ـ: «واشتهر عندنا بقطر الجزائر المنور أن الشيخ السيد فلان أوقف السكة الحديدية عن المشي مشيرا إليها بأن تقف فوقفت وأن الشيخ فلان كان يصلي وصدر الأمر إلى سائق السكة الحديدية بالمسير فلم يعمل الميكانيك ولم تمش السكة الحديدية كرامة للشيخ وهلم جرا من المجازفات الناشئة عن

سخافات عقول قومنا، ويا ترى إذا قال لهم قائل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين بأن نجعل أحدكم أو شيخكم ذلك نفسه على قضبان السكة الحديدية هل يعطلها؟ وإلا فأنتم كاذبون والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾، وبعبارة أخرى إذا كان شيوخكم بهذه الدرجة من الخوارق والكرامات بأن يعطلوا الميكانيك فإن المدافع والبندقيات الموزيرية والطيارات والغواصات والمراكب البحرية كلها ميكانيك فكفوا عن الأمم المستضعفة شر المدافع والطيارات والدبابات والمصفحات من السيارات ونحو ذلك من الويلات»[١٤].

*** وفاته:**

وبعد عمر مديد بلغ التسعين عاما سخره في خدمة قضايا أمته خطابة وكتابة، وداعيا ومصلحا بطريقة فذة وبشكل قلما نجده لأمثاله على حد تعبير الدكتور «أبو القاسم سعد الله»، وافته المنية سنة ١٩٥٢ بمدينة الجزائر، ودفن في مقبرة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه بمنه وكرمه، آمين.

---

(١) «جماعة المسلمين» (ص١).

(٢) «تاريخ الجزائر الثقافي» (٦/ ٣٢٥).

(٣) «تاريخ الجزائر الثقافي» (٧/ ٣٣٨).

(٤) «تاريخ الجزائر الثقافي» (٧/ ١٧٦).

(٥) «تاريخ الجزائر الثقافي» (٧/ ١٧٧).

(٦) «تاريخ الجزائر الثقافي» (٧/ ١٩٧).

(٧) «تاريخ الجزائر الثقافي» (٨/ ٤٨).

(٨) «تاريخ الجزائر الثقافي» (٨/ ٨٠).

(٩) «تاريخ الجزائر الثقافي» (٦/ ٣٥٢) و(٧/ ١٩٠)، و«الإسلام الصحيح» (ص٢٦).

(١٠) «تاريخ الجزائر الثقافي» (٧/ ١٥٥).

(١١) «تاريخ الجزائر الثقافي» (٧/ ١٧٥).

(١٢) «جماعة المسلمين» (ص١).

(١٣) «الإسلام الصحيح» (ص٨٦).

(١٤) «الإسلام الصحيح» (ص٧٤).

نصيحة في الصبر على أذى المنافقين والتحذير من أخلاقهم[1]

للإمام محمد بن علي الشوكاني رحمه الله تعالى

(١١٧٣هـ ـ ١٢٥٠ هـ)

قدّم له وعلّق عليه: عمار تمالت

إنّ الحمد لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضللْ فلا هاديَ له.

وبعد؛ فإنَّ الله عزَّ وجل قد هدانا للإيمان، وبيَّن لنا أوصافَ المؤمنين، ودعانا إلى التحلِّي بها وملازمتِها حتى يكمل إيمانُنا ويثبت، وهي التي ترجمَها النبيُّ ﷺ في سيرته العطرة، واتبعها أصحابُه من بعده، ومن تبعهم إلى يوم الدين من العلماء والصالحين؛ وحذَّرنا من كلِّ ما يُنقِصُ إيمانَنا أو يُبطِلُه، من العقائد والأخلاق والأعمال.[1]

وإنَّ من الأخلاق السيِّئة التي تُنقِصُ الإيمان، وأحياناً تُضادُّه وتُعرِضُه للبطلان: خُلُقَ النفاق، الذي اتَّصفَ واختصَّ به قومٌ دُخلاء على المسلمين، يُظهرون الإيمان والإسلام، ويُبطِنون ما يخالفُ ذلك من العقائد والأعمال، ويسعون في الكَيْد للمسلمين وإعاقة دعوتهم بوسائل مخفيَّة وطرق مشبوهة، لكن سرعان ما تنكشفُ أسرارُهم وتظهرُ حقيقتُهم بين المسلمين بسبب ما يسلكونه ويتَّصفون به من بعض الصفات التي بيَّنها الله عزَّ وجل في مواضع من كتابه الكريم.

وبين يديك أخي القارىء نصيحةٌ في بيان أحوال أهل النفاق وسلوكهم مع المسلمين المؤمنين، وما ينبغي للمسلمين أن يسلكوه تجاه كيد هؤلاء القوم وأراجيفهم الباطلة؛ كتبها الإمامُ العالمُ القُدوةُ الناصحُ محمد بن علي بن محمد الشَّوْكاني.

والإمام الشوكاني[2] فقيهٌ مجتهدٌ، من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء، وُلد بهجرة شَوْكان ـ قريةٌ من بلاد خَوْلان باليمن ـ سنة ١١٧٣هـ، وهاجر مع أبيه إلى مدينة صنعاء، فنشأ بها وحفظ القرآن الكريم،

ثم انصرف إلى التعلُّم، فحفظ جملةً من المتون والكتب العلميّة في مختلف الفنون، ثم شرع في القراءة على علماء عصره، فقرأ وسمع عليهم كتباً لا تُحصى في علوم عدَّة، وبعد أن نضج في العلم تفرَّغ لإفادة الطلبة، فكانت له في اليوم الواحد أزيَد من عشرة دروس في علوم متعدِّدة، إلى جانب ذلك كان مشتهرًا بالفتوى فكانت تأتيه الفتاوى والنوازل من مختلف مناطق اليمن وغيرها، وكان لا يأخذ على الفتيا شيئًا من المال؛ بل كان يقول: أنا أخذتُ العلمَ بلا ثمن فأريدُ إنفاقَه كذلك، وصنَّف الإمامُ الشوكانيُّ تصانيف عدَّة تنيفُ على المائة مصنَّف، ما بين مطوَّل ومختصر، وامتازت مصنَّفاتُه بالتَّحقيق والرجوع إلى الأدلَّة الشرعيَّة في مختلف المسائل، فمن مصنَّفاته: «فتح القدير» في التفسير، و«نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار» في الحديث، و«إرشاد الفحول في تحقيق الحق من علم الأصول» في أصول الفقه، و«السيل الجرّار على حدائق الأزهار» في الفقه، وغير ذلك كثير، وتوفي رحمه الله تعالى قاضيًا بمدينة صنعاء سنة ١٢٥٠هـ.

وهذه النصيحة التي نحن بصدد نشرها في هذه المجلَّة الغرَّاء يوجدُ أصلُها الخطِّي ضمن المجموع رقم (٨٦) من مجاميع مكتبة الجامع الكبير بمدينة صنعاء، ونُسختُها كتبها المؤلِّف بخطِّ يده، ولم يذكر تاريخَ كتابتها، لكن يُرَجَّح أنّه كتبها سنة ١٢٣٩هـ، لِما قُيِّد في آخرها من قراءة أحد تلامذته عليه.

صورة لورقة من المخطوط



وهذا نصّ النصيحة:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين، وعلى آله الطاهرين وصحبه الراشدين.

وبعد؛ فإنَّا رأينا من بعض أهل عصرنا من يتَّصفُ بالأوصاف التي ذكرها الله سبحانه في كتابه العزيز، حيث قال عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (119) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120)** ﴾ [آل عمران: ١١٨ ـ ١٢٠]، انظر كيف وصف سبحانه ما يقع من هذه الطائفة من الخبال والخذلان ووِدادة ما يُعنِتُ أهلَ الإيمان، وظهورِ البغضاء ـ التي محلُّها القلوب ـ بترجمةِ الألسن عنها وظهورِها منها، وأنَّ ذلك الذي تُبديه الألسنُ من الأفواه إنَّما هو البَعض، وما تُخفيه الصدورُ أكبرُ، ثم ختم الآية بأنَّ هذا البيان الربَّاني بالآيات القرآنيّة إنَّما يفهمُه مَن يتعقَّلُ الأمورَ كما ينبغي، ويفهمُها كما يجب، لا مَن كان غافلاً بَليدَ الفهم ضعيفَ العقل، فإنَّه يلتبسُ عليه صنيعُ هؤلاء المنافقة، الذين يُبطِنون ما لا يُظهِرون، ولكنْ فلتاتُ ألسُنهم وما تَجيشُ به خواطرُهم ممَّا استجنَّ في قلوبهم من الغيظ: يستدلُّ به العُقلاءُ على ما وراءه ويتعقَّلُ به ما خلفه من العداوة الكامنة، كموت النار في صمم الأحجار.

ثم أوضحَ لعباده المؤمنين أنَّهم قد اغترُّوا بظواهر أحوالهم وما تلقَّوْه من نفاقهم، فأحبُّوهم مع أنَّهم لا يُحبُّونهم، وأنَّ المؤمنين ـ على طريقة الإيمان الخالص التامِّ ـ بالكتاب كلِّه، وأضدادُهم لا يؤمنون أصلاً؛ بل ينافقونهم فيقولون آمنَّا، وذلك مجرَّدُ قول باللِّسان لا حقيقة له ولا اعتقاد قلب.

ثمَّ بالغ الربُّ سبحانه في غَيْظ هؤلاء المنافقين

ومزيد بُغضهم وتكالبهم في العداوة للمؤمنين فقال: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾، والبلوغُ إلى هذا الحدِّ لا يكون إلاَّ لالتهاب صدورهم وتسعُّر قلوبهم واضطرام خواطرهم، كما تراه فيمن بلغ به الغيظُ إلى عضِّ أنامله، فإنَّه لا يكون ذلك إلاَّ لأمر قد فدحه وبلغ منه إلى الغاية التي ليس وراءها غاية.

ثم علَّم الله المؤمنين بما يقولونه لهم عند ذلك، وأمر رسولَه ﷺ أنْ يقول لهم: ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾، فانظر هذا الأدبَ الإلهي، والتعليمَ الربَّاني، فإنَّك لو جئتَ بكلِّ عبارةٍ في الردِّ على هؤلاء المنافقة لم تجدْ جواباً أبلغ من هذا، ولا أقطعَ لظهورهم، ولا أنكأ لقلوبهم وأخرس لألسنهم منه، فإنَّ غاية ما يتأثَّر عن مزيد العداوة هو الغيظ، فإنْ تعاظمَ وتفاقم وأفرط بصاحبه بلغ به الـموتَ، فإذا قلتَ لمن غلتْ مراجلُ قلبه واضطرمت نيارُ جوفه واضطربت أمواجُ صدره بما جلبتْه عليه عداوتُه لك من الغيظ: «مُتْ بغيظك»، فقد بلغتَ من نكايته مبلغاً لا تفي به عبارةٌ ولا يُحيطُ به قولٌ؛ لأنَّك جئتَ بغاية ما يبلُغ إليه كيدُه وينتهي إليه غيظُه، وقلتَ له: «مُتْ بغيظك» فإنَّك لم تضرَّ به إلاَّ نفسَك، ولم ينجعْ إلاَّ فيك، ولا بلغ هذه الغايةَ إلاَّ منك، وعند أنْ يسمع هذا الجوابَ يزدادُ غيظًا إلى غيظه، وبلاءً إلى بلائه، ومحنةً إلى محنته، فكانت الثمرةُ التي استفادها من عداوته وما حمله من حسده هو هذا العذاب العظيم والبلاء المُقيم، ولم ينلْ أهلَ الإيمان من ذلك شيءٌ أصلاً، فجارَ كيدُه عليه، ولا يحيقُ المكرُ السيِّءُ إلاَّ بأهله، ويرجعُ بغيُه إليه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣]، وعاد نكثُه إلى نفسه: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾، وحلَّ خداعُه به: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩][٣].

ثم أخبر سبحانه عباده المؤمنين بأنَّه عليمٌ بما تُجنُّه الصدورُ وتُخفيه القلوبُ، وفي ذلك تسليةٌ للمؤمنين عظيمةٌ عمَّا يكادُ يلحقُ بهم من غَمٍّ، لما يسمعونه من جَلَبَة المنافقين عليهم، وصَوْلَتِهم وعداوتهم لهم؛ لأنَّ ما كان بعلمِ الربِّ سبحانه وكائنٌ لديه فهو المُجازي لفاعله المنتصِف من قائله،



وكفى به سبحانه مُنصِفاً من الظالمين ومُنتقمًا من المُتخلِّقين بأخلاق المنافقين.

ثم بيَّن سبحانه لعباده حالَ هؤلاء بأكمل بيانٍ، وأَوضحَه بأتمِّ إيضاح، بحيث لا يبقى بعده رَيْبٌ، ولا يختلجُ عنده شكٌّ، فقال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾، فجعل سبحانه مجرَّدَ مسِّ الحسنة للمؤمنين موجبًا لـمُساءة المُتخلِّقين بأخلاق المنافقين، ومجرَّدَ إصابة ما يُساءُ به المؤمنون مُقتضيًا لحصول الفرج لهم، وليس بعد هذا من العداوة شيءٌ، فإنَّه النهايةُ التي ليس وراءها نهايةٌ، والغايةُ التي ليس بعدها غايةٌ.

ثم شدَّ سبحانه قلوبَ عباده المؤمنين، وطمَّنَ خواطرَهم، وأثلجَ صدورَهم، أنَّهم مع الصبر والتقوى لا ينالُهم من تلك الصَّولاتِ شيءٌ، ولا يعلَقُ بهم من تلك القعاقعِ[٤] أمرٌ، ولا يصلُ إليهم ضررٌ البتَّة، كما يفيدُه قولُه سبحانه: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾، فجاء بلفظ شيء الذي يتناول مثقالَ الذرَّة وما دونه، فضلاً عمَّا فوقه، وليس بعد هذه التسلية الربَّانيَّة والتعزية الرحمانيَّة لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيد؛ فإنَّ هذه الألفاظ اليسيرة والكلمات الموجزة أفادتْ ما لم تُفدْه بلاغاتُ البُلغاء وفصاحات الفُصحاء، فإنَّ غاية ما نجدُه من كلامهم في هذا الشأن هو كقول قائلهم[٥]:

إن يسمعوا سُبَّةً طارُوا بها فَرَحًا
مِنِّي ومَا سمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

وكقول الآخر[٦]:

إن يسمعوا الخير يُخفوه وإن سمعوا
شرًّا أذاعوا وإن لم يسمعوا أفكوا

فإنَّ غاية ما في هذين البيتين أنَّهم يُخفون المحاسن وينشرون المساوئ، فأين هذا ممَّا وصفه الله سبحانه عنهم من إساءة الحسنة لهم وفرحهم بالسيِّئة؛ فإنَّ هذا أمرٌ وراء الإخفاء والإذاعة؛ فإنَّها لا تتأثَّرُ القلوبُ بالإساءة والفرح إلاَّ بعد تمكُّن العداوة والبغضاء تمكُّنًا زائدًا، وأما مجرَّد الإخفاء للخير والإذاعة للشرِّ فإنَّ ذلك يحصلُ لمن بُلي بمجرَّد الحسد.

ومع هذا؛ فإنَّ هذا النَّظْمَ القرآنيَّ يدلُّ على أنَّ

مجرَّد ما يصلُ إلى المؤمنين مما يسمَّى حسنة يتأثَّر عنه المُساءةُ لأعدائهم، ومجرَّد ما يصلُ إلى المؤمنين مما يسمَّى سيِّئة يتأثَّرُ عنه الفرحُ لأعدائهم، كما يدلُّ عليه تنكيرُ الحسنة والسيِّئة، فإنَّ الظاهر فيه أنَّه تنكيرُ التحقير، فالحسنة الحقيرةُ والسيِّئةُ الحقيرةُ ـ وإن بلغت إلى الغاية في الحقارة ـ يتأثَّرُ عنها ذلك، فكيف بما كان فوق ذلك!

فإن قلتَ: قد ذكر الله سبحانه في هذه الآيات أوصاف أهل النفاق وما كانوا عليه، فمِن أين لك أنَّ بعض أهل عصرك كذلك؟

قلتُ: من وجدنا منه هذه الأوصاف التي اشتمل عليها الكتابُ العزيز فقد صدق عليه ما ذكره الله سبحانه في هذه الآيات، ولا شكَّ أنَّ المُتخلِّق بأخلاق المنافقين، المُقتدي بهم فيما كانوا يعاملون به المؤمنين لاحقٌ بهم، وغايةُ الأمر **أنْ** نتورَّعَ عن الحكم بالنفاق ونقول: من اتَّصف بهذه الأوصاف فهو مُتخلِّقٌ بأخلاق المنافقين، وهذا كلامٌ صحيحٌ لا يدفعُه دافعٌ ولا يردُّه رادٌّ، بل السنَّة المُطهَّرة تشهدُ له شهادةً أوضحَ من شمس النهار، وتُنادي عليه بأعلى صوتٍ، وذلك أنَّه صحَّ عن رسول الله ﷺ ـ كما في «الصحيحين» وغيرهما[٧] ـ أنَّه قال في تبيين أخلاق النفاق أنَّها: «**إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ**»، هكذا في الأحاديث الصحيحة من طرق عديدة، وقال مَنْ كَانَتْ فِيهِ خصْلَةٌ مِنْ هَذِهِ الخِصَالِ كَانَتْ فِيهِ خصْلَةٌ مِنْ خِصَالِ المُنَافِقِينَ، وَمَنِ اجْتَمَعَتْ فِيهِ فَقَدْ كَمُلَ فِيهِ النِّفَاقُ، هكذا وقع القضاءُ النبويُّ على كل مُتخلِّقٍ بهذه الأخلاق أو ببعضها من أهل الإسلام، والأحاديثُ في هذا الباب متواترةٌ، يعرفُها من يعرفُ السنَّةَ المُطهَّرةَ.

وقد وجدنا ـ ووجد غيرُنا ـ من المتخلِّقين بهذه الأخلاق من يعلمُ من بُحِث عن أحواله أنَّه إذا لم يكن فيه كلُّ هذه الخصال ففيه بعضُها، وإذا شئتَ أن تعرفَ صحَّةَ هذا فانظرْ إلى من غَلَب عليه، أنَّه إذا لاقاك عظَّمَك وأثنى عليك وتودَّدَ إليك، وإذا فارقَك قامَ وقعد بذمِّك، وأظهر من العداوة لك والبغضاء ما يقدرُ على إظهاره، كما قال الشاعر[٨]:

ويُحيِّيني إذا لاقيتُه
وإذا يخلو له جسمي رتعْ

ويـراني كالـشجا في حَلْقـه

عَـسِرًا مخرجُـه مـا ينتـزع

وهكذا من وعدَك فأخلفَك، أو حدَّثك فكذبَك، أو عاهدك فغدرَك، أو أمَّنته فخانَك، فمن وجدتَه هكذا وحكمتَ عليه بما حكم عليه رسولُ الله ﷺ كان الحقُّ بيدك والصوابُ ما فعلتَه، ومن أنكر عليك ذلك فقد أنكر الشرعَ الواضحَ والسنَّةَ المتواترةَ.

اللَّهم أصلحنا وسائرَ عبادك، وادفعْ عنا شرَّ الأشرار وكيدَ الفجَّار، يا من لا إله غيرُه ولا ملجأ سواه، وحسبُنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) لم يضع المؤلِّف عنوانًا لما كتبه، وقد وضعته اجتهادًا.

(٢) له ترجمة ذاتيَّة في «البدر الطالع» (٢/ ٢١٤ ـ ٢٢٥)، وممَّن ترجم له: زبارة في «نيل الوطر» (٢/ ٢٩٧ ـ ٣٠٢)، والبغدادي في «هدية العارفين» (٢/ ٣٦٥)، وصديق حسن خان في «التاج المكلل» (ص ٣٠٥ ـ ٣١٧)، وغيرهم.

(٣) وقد كتب المصنِّف كلمة «يخادعون» هكذا بضم الياء وألف بعد الخاء، وذلك على قراءة غير الكوفيين وابن عامر الشامي.

(٤) «القعاقع» جمع قعقعة، وهي اضطراب الصوت، انظر: «اللسان» (ق ع ع) و«تاج العروس» (ق ع ع).

(٥) أورده ابن هشام في «مغني اللبيب» (١/ ٩٠٨) بدون ذكر قائله.

(٦) هو: طُرَيْح بن إسماعيل الثَّقفي، والبيت من قصيدة له أوردها الصدر البصري في «الحماسة البصرية» (٢/ ٢١)، وعنده: «كذبوا» بدل «أفكوا».

(٧) الحديث أخرجه البخاري (٣٤) ومسلم (٥٨) وغيرهما.

(٨) هو: سُوَيْد بن أبي كاهل اليَشْكُري، والبيتان في «ديوانه» (ص٣٠).

تنبيه الأنام إلى هفوات الكلام

محمد تبركان

الحمد لله رب العالمين وأصلِّي وأسلِّم على المبعوث رحمةً للعالمين، أفصح من نطق بالضَّاد وخير من جرى لسانه بالعربيَّة من ولد يعرب بن قحطان، صلَّى الله عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى التَّابعين لهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

وبعد؛ فهذه الأوهام في الهجاء أثبتُّها عن العيان، والتقطتُها من كتب جماعة من الأعيان، ولعلَّ خواطرهم هفت بها نسيانًا، وأقلامهم خطرفت بها طغيانا، على أنِّي لم أقصد بما جمعته في هذا المقال وفتحت به ما استحكم من الأقفال، أنْ أندِّد بهفوات الأوهام، وعثرات الأقلام وأنَّى يعتمد ذلك لبيب، وهل يتَّبع المعايبَ إلَّا مَعيب! قالت الخنساء:

وَمَنْ ظَنَّ مِمَّنْ يُلَاقِي الحُرُوبَ
بِأَنْ لَا يُصَابَ فَقَدْ ظَنَّ عجزا

وأنا أرجو أن يقع هذا المقال إلى من يستر المعيبة، ويدرأ بالحسنة السيِّئة وأن أُكْفَى إفراط من ينطق عن الهوى، ويجهل أن لكل امرئ ما نوى.

ومن الله تعالى أستلم التَّوفيق للمقال، المتعلِّق بالإصابة للفعال، المجتلِب حسن الإنابة إنَّه بكرمه وليُّ الإجابة»[1].

* «**مُغْلَقٌ**» لا «**مَغْلُـوقٌ**»: قـال أبـو الأسود الدُّؤلي[2] من البسيط:

ولا أقول لِقِدْرِ القومِ قد غَلِيَتْ
ولا أقول لباب الدَّار مَغْلُوقُ
لكن أقول لبابي مُغْلَقٌ وغَلَتْ
قِدري وقـابَـلَها دَنٌّ وإبريـقُ

أي إنَّه فصيح لا يَلحَن، وهو كلام العرب، قال الفرَزْدَق:

ما زِلْتُ أفتح أبوابا وأُغْلِقُها
حتى أَتَيْتُ أبا عَمْرِو بنِ عمَّار[3]

وقال أيضا:

فتحنـا بإذن الله كـلَّ مديـنـةٍ
مِنَ الهند أو بابٍ منَ الرُّوم مُغْلَقِ

وقال جرير:

نحن الحُمَـاةُ بكـلِّ ثَغْرٍ يُتَّقى
وبنا يُفـرج كـلُّ بـابٍ مُغْلَـقِ

وقال الشافعي[4]:

والجَدُّ يُدْنِي كـلَّ أمر شـاسـعٍ
والجِـدُّ يفتح كـلَّ باب مغلقِ

فلا تَقُلْ: غَلِيَتِ[5] القِدْرُ، ولا: بابٌ مَغْلُوقٌ، وإنْ حكاها ابن دُرَيْد عن أبي زيد؛ لأنَّه من لحن العامَّة، وهو قبيح كما قال في «المزهر» (١/ ٢٥٢)، ولُثْغَة أو لُغَيَّة رديئة في أغلقه كما في «القاموس المحيط» (١/ ١١٨٢)، ونادرة... ورديئة متروكة كما في «اللِّسان» (١٠/ ٢٩١)، و«الصحاح» (٤/ ١٢٦٦)، و«المختار» (ص٤٧٩)، ولغة قليلة ورديئة كما في «المصباح المنير» (٢/ ٤٥١ ـ ٤٥٢)، و«لثغة أو لغية رديئة» متروكة... أو نادرة كما في «تاج العروس» (٧/ ٣٨ ـ دار الفكر).

بل تقول: غَلَتِ[6] القِدْرُ، وأَغْلَقَ البابَ فهو مُغْلَقٌ.

لقد منع منه الفحـولُ من علماء العربيـة، والعدول من نَقَلَةِ اللُّغة.

قال ابن السِّكِّيتِ في «إصلاح المَنْطِقِ» (١٨٨ ـ ١٩٠): «باب ما جاء على (فعَلت) بالفتح مما تكسره العامة أو تضمُّه وقد يجيء بعضه لغةً إلَّا أنَّ الفصيح الفتح... ويُقال: قد غَلَتِ القِدر تَغْلِي غَلْيا وَغَلَيَانًا [بفتحتين] ولا يقال: غَلِيَتْ».

وقال في باب ما يُتكلَّم بـ «أفعَلتُ» مما يَتكلَّم فيه العامة بفَعَلْت (١/ ٢٢٧): «...وقد أغلقت الباب فهو مُغْلَقٌ ولا يقال: مَغْلُوقٌ، وقد أَقْفَلْتُهُ فهو مُقْفَلٌ ولا يُقال: مَقْفُولٌ».

وقال ثعلب في «الفصيح» (٧٩): «باب أَفْعَلَ:... وأغلقت الباب فهو مُغْلق، وأقفلته فهو مُقْفل».

وقال في «أدب الكاتب» (٢٨٤ ـ ٢٨٦): «باب ما يُهمز من الأفعال والأسماء، والعَوَامُّ تُبدِل الهمزة فيه أو تُسقِطها... وأَغْلَقْتُ الباب، وأقفلته، ولا يقال: غَلَقْتُه ولا قَفَلْتُه».

وبعد، فَتَأَمَّل معي ـ أخي القارئ الحصيف ـ ما خَلُص إليه في «معجم الأخطاء الشَّائعة» (ص١٨٩) فقد جاء فيه ما نصه: «... لذا لا أرى بأسًا في أن

نقول: هذا البابُ مغلقٌ ومُغَلَّق ومَغلُوقٌ»، قال ذلك اعتمادا على ما حكاه ابن دريد عن أبي زيد من أنَّه جوَّز ذلك، وهو ـ عفا الله عنه ـ لم يُورد ولو شاهدًا واحدًا يؤيِّد ما ذهب إليه من كلام الله أو رسوله أو لغة العرب؟! سوى نُقُولَاتٍ عن بعض أعلام اللُّغة وعلماء العربية، وهي كما علمت عارية عما يشهد لها من كلام العرب، سماعًا وقياسًا.

* **المُتَوَفِّي أم المُتَوَفَّى**: أما الأوَّل ـ على صيغة اسم الفاعل من غير الفعل الثلاثي: وهو الله تعالى، الذي يتوفَّى الأنفُسَ حين موتها، قال عزَّ شأنه في سورة الزُّمَر (٤٢): ﴿ **ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ...﴾.

وأما الثَّاني ـ على صيغة اسم المفعول من غير الفعل الثلاثي: وهو الإنسان الذي اسْتَوْفَى اللهُ عزَّ وجلَّ مُدَّةَ حياتِهِ؛ فلم يَبْقَ له منها شيءٌ؛ فحَلَّ أجلُه لانقضاء عمره.

ذا، هو الفارق بين اللَّفظتين في لسان العرب، وبينهما من التَّباين في الدَّلالة ما علمتَ من التَّباين بين الخالق والمخلوق.

وعليه؛ فاحذر زلَّةً مِنْ لَحْمَةٍ بَيْنَ شدْقَيْنِ، تجمع في رسمها بين دَلالتين.

وقد وقعت فيه لطائف يحسُن إيرادُها وهي:

١ ـ حكي[٧] أن بعضهم حضر جِنازة فسأله بعضُ الفضلاء، وقال: مَنِ المُتَوَفِّي؟ بكسر الفاء[٨]، فقال: اللهُ تعالى، فأنكر ذلك إلى أن بُيِّن له الغَلَط، وقال: قُلْ من المُتَوَفَّى، بفتح الفاء [المشدَّدة].

وبعضهم يَذْكُر أنَّ المسؤول هو: عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

٢ ـ ومما يُذكر في هذا السياق كذلك ما رواه أحد اللُّغويِّين، قال: سِرت في طريقي فرأيت جنازة تُشيَّع، وسمعت رجلًا يسأل: من المتوفِّي (بالياء)، فقلت له: الله سبحانه وتعالى؛ فضُربتُ حتى كدت أموتُ»[٩].

٣ ـ وفي «محاضرات الأدباء» (١/ ١/ ٦٦) قال الأصبهاني: «وَمَرَّ رجلٌ بدارِ ميِّتٍ فقال: من المتوفِّي؟ فقال له رجل: الله، فقال له: يا كافر، الله يموت؟ فقال: لعلَّك تُريدُ المتوفَّى؟».

هذا، وقد أجاز في «معجم الأخطاء الشَّائعة» (ص٢٧١) على مَضَضٍ أن يقال: توفَّى فلانٌ[١٠] اعتمادًا على:

أ ـ أن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقرأ الآية الكريمة (٢٣٤) من سورة البقرة: ﴿**وَالَّذِينَ**

يَتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ...﴾ بالبناء للفاعل.

والجواب: أنَّ معنى الآية الكريمة على قراءة البناء للمعلوم هو: استيفاء الأجل، والفعل توفَّى هو من تَوْفِيَةِ العدد وليس من الوَفَاة، يدلُّ على ذلك أمور منها:

ـ جاء في «ملحق درَّة الغوَّاص» (ص٢٩٠):

«ومنه قول منظور الوبري:

إنَّ بني الأَدْرَدِ ليسوا من أحدْ
ولا تَوفَّاهم[11] قريشٌ في العددْ

ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] وهو من تَوْفِيَةِ العدد، وليس من الوَفَاةِ، أي يقبض أرواحكم أجمعين بأمر ربِّه، فلا يُنْقِص واحدا منكم، كأن تقول: تَوَفَّيْتُ من فلان مالي واستوفيتُه، أي لم يبقَ لي عليه شيءٌ منه...».

وقال في «المعجم الوسيط» (ص١٠٤٧): «تَوَفَّى... فلانٌ حقَّه: أخذه وافيًا، ويُقال: تَوَفَّيْتُ منه مالي: لم يبقَ عليه منه شيءٌ، و[توفَّى] المدَّة: بلغها واستكملها، وتوفَّى عددَ القوم: عدَّهم كلَّهم».

قال العلَّامة بكر أبو زيد في «معجم المناهي اللفظية» (٤٩٢): «وفي قوله تعالى: ﴿**والذين يتوفون منكم**...﴾ [البقرة: ٢٣٤] قراءتان، بالبناء للمعلوم وللمجهول، وأنَّها على قراءة المبنيِّ للمعلوم (يَتَوَفَّوْنَ) بمعنى (استيفاء الأجل) قاله ابن النحَّاس وغيره، والله أعلم».

ب ـ أنَّ الوجه في تخطئة العامِّي كونُه ليس من أهل القصد والتَّأويل، أي أنَّ الإمام حَدَّثَ السائلَ بما يقتضيه الحالُ، وما يَستوعبُه لُبُّه.

والجواب:

ـ أن الرِّواية ورد فيها: «بعض الفضلاء»، فلا يمكن اعتبار الرجل من عوامِّ النَّاس.

ـ أنَّ كلام هذا الإمام الهمام رضي الله عنه، الأصل فيه أن يحمل على حقيقته، وذلك باعتبار ما بَدَرَ منه تقويمًا لِلِسَانِ ذلك الرَّجل الفاضل، وأمَّا العدول به إلى ضرب من التَّأويل فليس يُقبل إلَّا إذا دلَّ عليه المقامُ أو بعضُ قرائنِ الأحوال.

وللعلَّامة الألباني[12] التِفَاتَةٌ طَيِّبَةٌ وتَأْصِيلٌ شرعيٌّ لهذه المسألة، قال رحمه الله تعالى: «فلان تَوَفَّى: أي استوفى أجلَه، وخيرٌ منه أن يقال: فلان توفَّاه الله؛ لأنَّ الأوَّل فيه إيهامٌ، والكلامُ بالموهماتِ ليس من أدب الإسلام، وهو يحتاج إلى تأويل، والكلام المؤوَّل لا حاجة إليه ما دام أنَّ في الكلام سعة في التَّعبير السَّليم، قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**لَا تَكَلَّمَنَّ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ بِهِ عِنْدَ النَّاسِ**»[13].

* **سَوَّغَ لا بَرَّرَ، والتَّسويغُ لا التَّبريرُ**: لقد شاع في الناس توظيفُ هذه الكلمات: «برَّر»، «التَّبريرُ»، «مُبَرِّرٌ»، «مُبَرَّرٌ»، بدلًا من «سَوَّغَ»، «التَّسْويغُ»، «مُسوِّغ»، «مسوَّغ»، رغم أن هذه الألفاظ الأخيرة تعتبر من صلب كلام العرب؛ لما لها من شواهدَ كثيرة، نظمًا ونثرًا.

بينما كلمة «بَرَّر»[١٤] تعتبر لفظةً محدثةً كما في «المعجم الوسيط» (ص٤٨ ع٣)؛ ولذلك أنكرها بعض الأفاضل تصريحًا أو تلميحًا، فمنهم:

١ ـ العلَّامة بكر بن أبو زيد في «معجم المناهي اللَّفظية» (ص٤٠٣) فقد جاء فيه: «...مع أنَّ لفظ: (تُبَرِّر) هنا غير فصيح في اللِّسان، والله أعلم».

٢ـ محجوب محمَّد موسى في «تطهير اللُّغة من الأخطاء الشَّائعة» (١/ ٢٠ ـ رقم ٣٤)، وقد أبان ـ وفَّقه الله ـ عن المانع من عدم جواز استعمال كلمة «تَبْرِير» عوضًا عن كلمة «تَسْوِيغ» وَلْنَقْرَأْ معًا مرقوم كلامه بحروفه، قال: «...فالحجَّة لدى الأستاذ[١٥] ولدى المجمع[١٦] واهية، وهي وجود (بَرَّ حَجُّ فلانٍ)، بمعنى (قُبِلَ)؛ فأين هذا المعنى من (التَّبْرِيرِ) بمعنى (التَّسويغ)؟

نقول: لقد سَوَّغَ لي فلان هذا الأمر، أي حسَّنه عندي وزيَّنه لي حتَّى أصبح سائغًا لديَّ، فإذا كانت مادة (سَوَغَ) جاهزة، فلماذا لا أستخدمها؟ ولماذا أستخدم كلمة تَبْرِير التي لا تفيد عند القائلين بها إلَّا تحسين الأمر المرفوض والدِّفاع عنه ومحاولة الإرغام على قبوله أو التَّغاضي عن قبحه؟ بينما يعطينا التَّسويغُ هذا وأكثر فهو يعني تزيين القبيح ويعني أيضا (القَبول) للأمر الحسن فالشَّيء السَّائغُ مقبول لذاته، والقبيح في حاجة إلى من[١٧] يُسوِّغه.

أما (بَرَّ حَجُّ فلانٍ) فلا نفهم منها إلَّا أنَّه حجٌّ (مَبْرُورٌ) أي مقبول؛ فأية عَلاقة تربطه بمعنى التَّحايل على تحسين القبيح؟

نحن نحترم مجمع لغتنا الموقَّر، ونحترم كلَّ من يدلي بدلوه في بئر النُّهوض بها... ولكن الحقُّ أحقُّ أنْ يُتَّبَعَ».

لَفْتُ نَظَرٍ: لا يَلْتَبِسَنَّ عليك ـ أيُّها اللَّبيب ـ ورود هذه الكلمة (تبرير) في بعض مصادر اللُّغة، كـ«اللِّسان» (٤/ ٨٨) و«تاج العروس» (٩/ ٢٦٥١)؛ فتظن أنَّ لها أصلًا في العربية والأمر بخلاف ذلك، قال الزَّبيدي رحمه الله: «وكذلك قولهم: ما أغنى عنِّي حبريرا؛ أي شيئًا، وحكى سِيبَوَيْه: ما أصاب منه حبريرا ولا تبريرا ولا حوروراً».

وقال في (٩/ ٢٥٥٢): «قولهم: ما أصبت منه



تَبريرًا بالفتح، أي: شيئًا، لا يستعمل إلَّا في النَّفي، مثَّل به سيبويه وشرحه السِّيرافي».

*** العضو الرَّئيسُ، والأعضاء الرَّئيسَةُ:** وأمَّا قولهم: العُضْوُ الرَّئِّيسِيُّ، والأعضاءُ الرَّئيسيَّةُ، بزيادة ياء مشدَّدة آخره، فلحنٌ يجب صيانة اللِّسان منه؛ لأنَّها حَشْوٌ لا معنى له.

وقد جرى على هذا السَّنَن في رسم هذه اللَّفظة (أعني: الرَّئيس، الرَّئيسة) بعض من يشار إليه من أئمة اللُّغة، وأفاضل العلماء، منهم:

أ ـ الإمام الهُمَامُ محمَّد مُرْتَضَى الزَّبِيدِي في «تاج العروس» (١٤/ ٣٩٥١) وقد جاء فيه قوله: «ومن المجاز: الأعضاء الرَّئيسَة، وهي أربعةٌ عند الأطبَّاء: القلب والدِّماغ والكبد، فهذه الثَّلاثة رَئِيسَةٌ من حيث الشَّخصُ، على معنى أنَّ وجودَه بدونها أو بدون واحد منها لا يُمكن، والرَّابع: الأُنْثَيَانِ، وكونُه رئيسًا من حيث النَّوع، على معنى أنَّه إذا فَاتَ فَاتَ النَّوع، ومن قال: إنَّ الأعضاء الرَّئيسَة هي الأنْفُ واللِّسانُ والذَّكَرُ، فقد سَهَا».

ب ـ الإمام الصَّاغَانِيُّ؛ الحسنُ بنُ محمَّد في «العُبَابُ الزَّاخِرُ وَاللُّبَابُ الفَاخِرُ» (رأس)، وقد جاء فيه قوله: «والأعضاء الرَّئيسة عند الأطبَّاء أربعة: القلب والدِّماغ والكبد والأُنْثَيَانِ، ويقال للثَّلاثة المتقدِّمة: رئيسةٌ من حيث الشَّخص، على معنى أنَّ وجودَه بدونها أو بدون واحد منها لا يمكن، والرَّابع رئيسٌ من حيث النَّوع، على معنى أنَّه إذا فَاتَ فَاتَ النَّوعُ، ومن قال: إنَّ الأعضاء الرَّئيسة هي الأنف واللِّسان والذَّكر فقد سَهَا».

ت ـ وابن سِيده في «المُحْكَمِ»، والثَّعالبي في «الطَّرائف»، وأبو حَيَّان التَّوْحِيدِي في «الإمتاع والمُؤَانسة»[18]، والصَّاغَانِي في «مَجْمَعِ البَحْرَيْنِ»، والخوارِزْمِي في «مفاتيح العلوم»، وأَدْوَرْدْلَايْن في «مدِّ القاموس»[19].

ث ـ وقال أصحاب الفضيلة في «المعجم الوسيط» (ص٣١٩ ع٣): «والأعضاء الرَّئيسة: هي التي لا يعيش الإنسان بِفَقْدِ واحد منها، وهي: القلبُ، والدِّماغ، والكبد، والرِّئتان، والكليتان.

ويقال: مسألة رئيسةٌ، أساسيَّةٌ...».

جـ ـ عبد السَّلام هارون في تقديمه لكتاب «الحيوان» للجاحظ (١/ ١٨) وقد جاء فيه قوله ـ رحمه الله ـ: «فوضح لي أنَّ صاحبَه اعتمد في تأليفه على أمور خمسة رئيسة».

وبعد، واستنادًا إلى ما سبق إيراده؛ قال في «معجم الأخطاء الشائعة» (ص٩٨ ـ رقم ٣٦٩):



«الأعضاء الرَّئيسة: ويقولون: القلب والدِّماغ والكبد من الأعضاء الرَّئيسيَّة في الإنسان، والصَّواب: من الأعضاء الرَّئيسة، كما جاء في «المحكم» لابن سِيدَه[٢٠]، و«التَّاج» للزَّبيدِي، و«الطَّرائف» للثَّعالِبِي، و«الإمتاع والمؤانسة» لأبي حَيَّان التَّوحيدي، و«مَجمع البحرين» للصَّاغَانِي، و«مفاتيح العلوم» للخَوَارِزْمِي، و«الوسيط لمجمع القاهرة»، و«مدُّ القاموس» لأَدْوَرْدْلَايْن.

نعم، لقد تراجع العدناني في «معجم الأغلاط اللُّغويَّة المعاصرة» (ص ٢٤٤ ـ رقم ٧٠٢) عن تخطئة من يستعمل: «الرَّئيسيّ» بدل «الرَّئيس»، و«الرَّئيسيَّة» بدل «الرَّئيسة»؛ لأنَّ مجمع اللُّغة القاهري أقرَّ في دورته الثَّامنة والثَّلاثين[٢١] استعمال كلمة «رئيسيّ» وممَّا جاء فيها قولهم: «يستعمل بعض الكتاب: العضو الرَّئيسيُّ، أو الشَّخصيَّات الرَّئيسِيَّة، وينكر ذلك كثيرون، وترى اللَّجنة تسويغَ هذا الاستعمال، بشرط أن يكون المنسوب إليه أمرًا من شأنه أن يَنْدَرِجَ تحته أفرادٌ مُتَعَدِّدَةٌ»[٢٢] ثم علَّق العدناني على قرار المجمَّع هذا بقوله: «ولست أدري لماذا سوَّغوا هذا الاستعمال مشروطًا، وأرى أحد أمرين:

أ ـ إمَّا أن نجيز قول الأعضاء الرَّئيسيَّة دون قيد أو شرط، حبًّا في تسهيل الأمور، واجتنابا لتعقيدها بذلك الشَّرط، الذي يجعل المرء يقف هُنَيْهَةً حائرا إزَاءَهُ.

ب ـ أو نكتفي بقول: الأعضاءُ الرَّئيسَة، كما تقول أمَّهات[٢٣] معاجِمِنَا.

فما رأي مجامعنا الموقَّرة؟».

وتأمَّل معي ـ أيُّها اللَّبيب ـ اقتراحه الأوَّل، والذي قيَّده بقوله: «حُبًّا في تسهيل الأمور».

وكأنَّ الأمر دائرٌ بين ما هو سَهْلٌ في الاستعمال، وما هو صَعْبٌ وعَسِرٌ فيه، وذَا يُوحي بِكَوْنِ الاستعمالَيْنِ جائزين في العربية، والأمر ليس كما زَعَمَ.

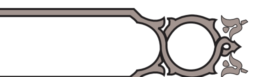
وأما اقتراحه الثَّاني فهو الذي سبق تقريرُه واعتمادُه.

*** رِجَالٌ بُؤْسٌ أو بُؤَّسٌ أو بَائِسُونَ لا بُؤَسَاء:**

يجمعون «بائِس» على «بُؤَسَاء»، والصَّواب أن يُجمع على: بُؤْسٌ، زِنَةَ: حُمْرٌ وخُضْرٌ، أو بَائِسُونَ، أو بُؤَّسٌ، زِنَةَ: رُتَّعٌ.

تقول: بَئِسَ الرَّجلُ بالكسر يَبْأَسُ بُؤْسًا، وبَأْسًا، وَبَئِيسًا، افتقرَ واشتدَّت حاجتُه فهو بَائِسٌ؛ فالبائسُ هو من نزلت به بليَّةٌ أو عُدْمٌ يُرحَمُ لما به.

أما البُؤَسَاءُ فهو جمع بَئِيس على فَعِيلٍ وهو الشجاع، تقول منه: بَؤُسَ الرَّجلُ، بالضَّمِّ فهو بئيس



كفعيل أي شجاع، وعذابٌ بئيس أيضًا شديد، قال تعالى في سورة الأعراف (١٦٥): ﴿...وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥)﴾.

فانظر ـ رعاك الله ـ كم بينهما من التَّباين في المعنى، ومع ذلك لا تكاد تقرأ أو تسمع[٢٤] «البؤساء» إلَّا على معنى: من افتقر واشتدَّت حاجته، فلِلَّه أشكو غُرْبَةَ العربيَّة بين أهلها!

وقد وقع في هذا الغلط بعض العلماء الأفاضل ـ عفا الله عنهم وكساهم حلل الكرامة ـ منهم:

ـ ابن القيِّم في حاشيته على «سنن أبي داود» (٣/ ١٢٨ ـ سطر ١٩)، ونقله عنه:

ـ محمد الأمين الشنقيطي في «أضواء البيان» (١/ ١١٤ ـ سورة البقرة).

ومن الكتاب والأدباء:

ـ الشَّاعر المصري محمَّد محمَّد عبد المجيد إمام العبد له كتاب باسم «إمام البؤساء»[٢٥].

ـ شاعر النِّيل حافظ إبراهيم له كتاب «البؤساء»[٢٦] ترجم به جزءين من les miserables لِفِيكْتُور هِيجُو[٢٧].

وبعد، فإليك ـ أيُّها الكريم ـ أسوق بعض ما يشهد لهذا الجمع (بَائِس على بُؤَّس وبُؤْس):

١ ـ ما قاله عبد الله بن عمر العبلي كما في «التَّعازي والمرائي» للمبرّد (ص١٠١):

فكم من كـوابٍ بَـوَاكِي العُيُـو
نِ حُزْنًـا ومن صِبْيَـةٍ بُؤَّسِ

٢ ـ وفي «اللِّسان» (٦/ ٢١) قال تَأَبَّطَ شَرًّا:

قد ضِقْتُ من حُبِّها ما لا يُضَيِّقُنِي
حتَّى عُدِدْتُ من البُوسِ[٢٨] المساكِينِ

قال ابن سِيده: «يجوز أن يكون عَنَى به جمع البائس، ويجوز أن يكون من ذَوِي البُؤْسِ، فحذَفَ المضاف وأقام المضاف إليه مقامه».

٣ ـ وفي «اللسان» (٩/ ٦ع١): «وأنشد ابن بري:

ترى صُـوَاهُ قُـيَّـمًـا وجُلَّسا
كمـا رأيتَ الأُسَفَـاءَ البُؤَّسَـا

---

(١) «درة الغوَّاص» (ص٢٥٤ ـ ٢٥٥).

(٢) في «نقعة الصديان فيما جاء على الفعلان» (١/ ٧٣): «وأنشد ابن السِّكِّيت لأبي الأسود الدُّؤَلِي ولم أجده في شعره» **قلت**: وقد نسبها إليه كلٌّ من السُّيوطي في «المزهر» (١٠/ ٢٩١)، والزبيدي في «تاج العروس» (٢٢/ ٦٥٢٩) ، وابن منظور في «اللسان» (١٠/ ١٥، ٢٩١/ ١٣٤)، والجوهري في «الصحاح» (٤/ ١٢٦٦).

(٣) قال أبو حاتم السّجِسْتَاني: يريد أبا عمرو بن العلاء كما في «اللسان» (١٠/ ٢٩١) و«تاج العروس» (٧/ ٣٨ـ دار الفكر).

(٤) «ديوان الشافعي» (ص٦٥ محمد عفيف الزعبي)، وانظر تخريجه في كتابي: «تأصيل شعر الشافعي» ـ قافية القاف.

(٥) في «مختار الصحاح» (٤٨٠): غلَتَ القِدْرُ من باب رَمَى، وفي «المصباح المنير» (٢/ ٤٥٢): من باب ضَرَبَ.

(٦) جُلُّ المعاجم تقول: إنَّ الفعل الماضي هو غَلَى وليس غَلِيَ ـ «معجم الأخطاء الشائعة (ص١٨٩).

(٧) نقلا عن «معجم المناهي اللفظية» (ص٤٩٢)، وهو في «محاضرات الأدباء» (١/ ١/ ٦٦).

(٨) نقلا عن «درة الغواص» (ص٢٩٠).

(٩) نقلا عن «درة الغواص» (ص٢٩٠).

(١٠) التسليم بهذا التركيب اللغوي يعني الإقرار بجواز أن يقال للإنسان الميت: المُتَوَفِّي؟!

(١١) تَوَفَّاهُم: أصلُها تَتَوَفَّاهُم، حيث حُذِفَت التاء لضرورة الشعر، عن محقق الدرة (ص٢٩٠ هامش ٤).

(١٢) «سلسلة الهدى والنور»: شريط سمعي، رقم (٩٢)، الوجه الأول، بعنوان: حكم الأذان.

(١٣) «الصحيحة» (١/ ٢٧٥٨ ـ رقم ٤٠١).

(١٤) وما اشتق منها نحو: مُبَرِّر، ومُبَرَّر، وتبرير.

(١٥) يعني: محمد خليفة التونسي.

(١٦) مجمع اللغة القاهري في «المعجم الوسيط» (ص٤٨ ع٣).

(١٧) كذا! ولعل الأصوب: «ما» بدل: «مَن».

(١٨) (١/ ١٤٥ ـ الليلة ١٧).

(١٩) نقلا عن: «معجم الأخطاء الشائعة» (ص٩٨)، بتصرف.

(٢٠) لم أره فيه!

(٢١) عُقِدَ المؤتمر بين ٧ شباط و٢١ شباط عام ١٩٧٢، بواسطة: «معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة».

(٢٢) نقلا عن «معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة» (ص٢٤٤).

(٢٣) الأرجح في الاستعمال الأفصح أي يقال: أُمَّات لمن لا يعقل، وأمهات لمن يعقل. وانظر ـ غير مأمور ـ بحثي لهذه المسألة في «إيقاظ الوسنان من زلات اللسان» (ص١٦ رقم ٧).

(٢٤) أعني في زماننا.

(٢٥) «الأعلام» (٦/ محمد إمام العبد)

(٢٦) قال في «معجم الأخطاء الشائعة»: وقد أخطأ حافظ إبراهيم عندما ترجم كتاب فيكتور هوجو، ووضع «البؤساء» عنوانا له.

(٢٧) «الأعلام» (٦/ حافظ إبراهيم)

(٢٨) أوردها في «معجم الأخطاء الشائعة» بالهمز (البُؤْس) ثم قال: «وقد أوردها اللسان والتاج غير مهموزة (البُوس)».

لا جديد في حقوق المرأة

أمينة حدّاد

الحمد لله أحكم شرعه فإليه يرجع أهل الحجا، يمدهم بالحجة، ويسيرون به على المحجة، يردون به على مزخرفي الغي بالبهرجة، ومزيفي الحق بالشبه السمجة، بعد أن اشتد باطلهم ونضج، جنى حصاده عميلهم ليلا وأدلج، ففتحوا لهم أسواقا في كل فج، ونادى عليها بائع الأعراض والقيم وروَّج.

نسمعهم كلما سنحت الفرصة يقيمون محافل لإثارة موضوع المرأة الذي لا يزال يستهوي أو قل «يستغوي» فئاما من الناس ممن يطالبون باسترجاع حقوق قد هضمت، وإطلاق حريات قد قيدت.

فتارة نسمع بطرح لإلغاء ولاية الرجل على المرأة، وتارة تترافع أصوات لإعادة النظر في الفرائض والمواريث وما يتعلق بحق المرأة منها، وتارة تعرض مطالب لإبطال حق تعدد الزوجات، وتارة...، وتارة...

هتافات في صخب وضجيج، ومطالب تجديد معه تهويل وعجيج، كل ذلك زعموا وهم يحومون حول حمى الشريعة المحمدية، حاملين معاول الهدم لأركانها المحمية، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

إنَّهم جاءوا بدعاوى أدهشت بعضهم بما تحمله من جرأة، وشوشت على من ليس لهم كبير حظ من الثبات عند هبوب رياح الإرجاف والفتنة، وإن كانت بحمد الله أشبه ما تكون برعد أزعج الآذان، وروع الضعاف والولدان، ولم يُرَ له بعدُ أثرٌ في أي مكان، فما زال الناس في بلدنا يقضى فيهم ويحكم عليهم بقانون أسرة قد خضع بحمد الله في

جملة كبيرة من نصوصه لقانون الشريعة الإسلامية، ومع ذلك يحسن في هذا المقام المختصر تحرير رد معتصر على بعض هذه الأباطيل؛ لأن أصحابها فيما زعموا دعاة تجديد وإصلاح، وقد أبى أهل الإصلاح إلا أن يتصدوا لكل دعوى لقيط زعم رفع نسبه إليهم وليس منهم في شيء حفظا للشريعة من كل شيطان مارد، وفكر منحرف شارد.

وهذه سردًا بعض مطالبِ أو قُلْ «معاطب» القوم، مع بيان ما فيها من فكر عقيم وفهم سقيم.

أوّلًا ـ رفع ولاية الرجال على النساء في التزويج:

وأفكار «المجددين» في هذا الباب تدور حول إلغاء ولاية الذكور على الإناث في التزويج، بمعنى أن يكون للمرأة حق تزويج نفسها من غير أن يشترط في ذلك رضا وليها، وهذا رأي يحكم به على صاحبه بالخطأ في التقدير، والخلل في التفكير، والخطل في الرأي والتدبير، ناهيك عن محايدته لنصوص الشريعة، ومعاندته لأقوال العلماء قديما وحديثا.

وأوضح الأدلة على المقصود قوله ﷺ فيما رواه أبو داود والترمذي: «**لاَ نِكَاحَ إِلاَّ بِوَلِيٍّ**» بمعنى لا نكاح صحيح إلا بولي، ويشهد لهذا ما رواه أحمد وغيره من حديث عائشة عنه ﷺ: «**أَيُّمَا امْرَأَةٍ نَكَحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهَا فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ، فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ، فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ**».

وهذا الذي عليه عامة أهل العلم وجمهورهم من مالك وأحمد والشافعي وغيرهم، وخالف أبو حنيفة فلم يشترط رضا الولي في صحة نكاح المرأة بالكفء.

فإن قيل: أليس أبو حنيفة عالما فلمَ تمنعون من الأخذ بقوله في هذه المسألة؟

فالجواب من وجهين:

الأول: ما مضى من السنة الصحيحة الصريحة وهي الحَكَم الفصل، لا أقوال الرجال وإن بلغوا من العلم والورع قُلَلَ الجبال.

الثاني: أن الأخذ بما يخالف الدليل الصحيح الصريح إنما يلجأ إليه بعضهم عند الحاجة إلى المدد بتكثير الأقوال بلا حجج، وهذا ما يجعل المرء ينتقل من مذهب إلى مذهب بحثا عن قول يروق الأهواء ويرضي الغوغاء مثلما هو الحال في مسألتنا هذه، إذ نجد دعاة التجديد لوضع المرأة راحوا يشدون أزرهم ويجبرون ضعفهم بفتوى أو بلوى تدفع عنهم كل نكير، وتضفي سترا على ما جاءوا به من الباطل والتزوير، وهذا حتى يختموا زورهم ببصمة

شرعية وهي مذهب السادة الحنفية!!

هذا، وإن العلماء لم يتنازعوا في اشتراط الولي في النكاح فحسب، بل في مسائل أخرى متعلقة به، فذهب أبو ثور وجماعة إلى أنه لا يشترط الإشهاد في النكاح، ولم يشترط الشافعي في المهر أن يكون مالا أو عوضا، ولكل وجهة ودليل، غير أن هذه الأقوال لو جمعت لكان حاصلها حلّ الزنا موقعا عليه بأسماء الأئمة الأعلام!

وهذه شنشنة قد عرفها العلماء قديما فحذروا منها، وهي تتبع ما جاء من غرائب وزلات، ونوادر وهفوات في المذاهب والنقولات لتكون بعد ذلك دليلا على فك ربقة التشريع والانسلاخ من أحكامه ابتغاء لليسر والتخفيف، فنقل ابن عبد البر وابن الصلاح وغيرهما الإجماع على أن تتبع رخص العلماء فسق لا يحل حتى قيل: «زلة العالِم زلة العالَم»!

يزيد الأمر وضوحا أن وقوع الخلاف في مسألة ما ليس دليلا على حلها كما يفهم الكثير، بل هو على العكس من ذلك دليلٌ حالَ اشتباهِ الأدلة وعسرِ التخلّص من الخلاف على الأخذ بالحيطة والإمساك عن الريبة، ومن عزّ عليه دينه تورع! فضلا عن هذا كله.

وإنما سيقت هذه الأدلة؛ لأنها الأصل عند طلب الحجة، وقد يكتفي اللبيب في هذا بشاهد الواقع، فإن فيه برهانا على صحة ولاية الرجل على المرأة في التزويج، وضوء الصباح يغني عن المصباح!

إن المرأة تعلم كما يعلم الرجل أنها إلى العاطفة أقرب ومن الحزم أبعد، يسهل على كل متلبس مستتر إذا دق أبواب عاطفتها بالأنامل من غير أن يوقظ شجونا أو يزعج إحساسا فتح الأبواب، بل ودخل من أوسعها، حتى إذا ما نال مراده انسل، وترك الفؤاد حَسْرانَ معتلا، ودرءا لهذا النوع من العدوان شرعت ولاية الرجل على المرأة، فإن الصائل لا يردّه دمع وتوسل وإنما يردعه زئير وتغوّل!

وشاهد آخر على حاجة المرأة إلى الرجل في تزويجها وهو لجوؤها إليه إذا استعصى عليها أمرها مع زوجها، فكم من امرأة بغى عليها زوجها فشدت أزرها وقوت عضدها بوليها، وكم من امرأة تزوجت بغير إذن من ولي فبقيت ذليلة تتجرع غصص النكد، تنكت الأرض وتقرع سن الندم، ولسان حالها قائل:

ليت العزوبة تعودُ يوما

فأخبرها بما فعل الزواج!!

فليست إذن ولاية تعسف ونكاية، وإنما هي ولاية رعاية وحماية.

ومن هذا الباب قد يفهم أيضا لماذا جعلت عصمة الطلاق بيد الزوج لا المرأة، وهذا مطلب من مطالب المجددين، أي:

ثانيًا ـ حق المرأة في التطليق:

كانوا يقولون قديما: «إذا زقّت الدجاجة زقَّ الديكِ فاذبحْها»، ولأن الدجاج في أيامنا هذه قد أصيب بأمراض غريبة ومعدية صار الديك يذبح أيضا!

حينما يقال بأنه يسوغ للمرأة تطليق زوجها فهذا يعني أن يكون الرجل على حذر ووجل يقبعان في نفسه ولا يفارقانه إلى أن يفارق زوجته فليس يدري متى يتقلب قلبها، وهو في الوقت نفسه مطالب بحمايتها ورعايتها والقيام بالنفقة عليها، وهذا بعينه الغُرم المقرون بالغُبن.

وقد تنزهت الشريعة عن مثل هذا، قال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا الطَّلَاقُ لِمَنْ أَخَذَ بِالسَّاقِ**» أخرجه ابن ماجه، أي أن الطلاق حق الزوج الذي له أن يأخذ بساق المرأة، وأما ما يقع من جهة المرأة من طلب فرقة وخلع إذا ما وجد مسوغ لذلك فإنه لا يكون بعبارتها، وإنما بقضاء القاضي إلا أن يفوضها الزوج الطلاق وهذا غير مسألتنا.

وكون الطلاق بيد الزوج هو العدل؛ لأن الزوج هو الذي بيده عقدة النكاح، فيجب أن يكون حل هذه العقدة بيده أيضا، ولأن الزوج قائم على المرأة كما قال تعالى: ﴿**ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ [النساء: ٣٤]، وإذا كان هو القائم صار الأمر بيده، هذا مقتضى النظر الصحيح؛ ولأن الزوج أكمل عقلا من المرأة وأبعد نظرا، فلا تجده يقدم على الطلاق غالبًا إلا حيث يرى أنه لا بد منه.

فإذا عارض مَن ديدنه المعارضة في كون المرأة ميالةً بالطبع إلى العاطفة؛ فلينظر إلى الأسقام التي يصاب بها أهل العاطفة، ولينظر إلى جمهور المترددين إلى عيادات الأمراض النفسية والراقين والمشعوذين و...، أَهُمْ رجال أم نساء!

إن هذه القضايا المذكورة في الحقيقة بعضها مرتبط ببعض، فالرجل له الولاية على المرأة؛ لأن عليه القيام بما يصلح أحوالها وحفظها والسعي لتوفير النفقة المناسبة لها، وحل عقدة النكاح بيده؛

لأنه في العادة لا يُقْبِل على هدم أسرة أضناه السعي في جمع لبناتها إلا إذا كان هذا البيت مجرد سكن لا سكينة فيه ولا سكن.

ولهذا أيضا فإن حق الرجل في الميراث مضاعف على حق المرأة فيه، فحمدا لله أعطى للمرأة نصيبا لنفسها وأعطى للرجل ضعف نصيبها لنفسه ولأهله وولده، فماذا يريد النساء بعد،...؟

يطالبن بالمساواة والبروز في الوظائف التي أسندت إلى الرجال، يردن أن يكن أندادا، بل «أسيادا» للرجال، ولن تزال المرأة مهما أعطيت من الحظوظ والحقوق هي المرأة، لن تزال المرأة تحمل، ولن تزال المرأة تلد وترضع، ولن تزال عاطلة عن «المهنة» لعطلة أمومة، ولن تزال المرأة قبل كل شيء بخلقتها امرأة تميزها على رجال العالم كلهم.

فهل من الفقه أو الحكمة بعد هذا كله أن يقضى عليها لا لها بمساواتها للرجل فتتحمل ما هي عاجزة عن القيام به، بل العقل والميزان الذي أنزله الله سبحانه شرعا وقدرا يأبيان الجمع بين الرجل والمرأة والمساواة بينهما ﴿**فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ [الروم: ٣٠].

دارت حرب في عقود مضت بين الرجال والنساء لإخراجهن من حيز البهيمية.

ولما وضعت الحرب أوزارها رضيت النساء من الصلح المشروط بيوم من الدهر يكون لهن عيدا، ومع أنهن لم يبتعدن كثيرا عن البهيمية التي كن فيها، فإن صاحبات المحنة فرحن لجزالة هذه المنحة!

وأما المرأة المسلمة فلا يزال فرحها منذ أن أشرقت شمس النبوة وجاءها الخطاب القرآني ﴿**مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾**﴾ [النحل: ٩٧].

فلا تجديد إذن لحقوق المرأة؛ لأن المطالبين به قد نضح إناؤهم بالباطل، وولغ فيه أشياعهم فإذا وردت عليه فأرقه فإنه نجس، لا يصلح لريٍّ ولا تطهير بدن ولا زيٍّ.

عبارات عقدية فاسدة

عمر الحاج مسعود

من المقرر عند أهل السنة والجماعة أن أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية فلا يثبت منها إلا ما ذكر في الكتاب والسنة، ولا مجال للعقل والاجتهاد في هذا، ومن أعظم التقول على الله تعالى تسميته ووصفه بما لم يثبت في الكتاب والسنة، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

وأنبه في هذا البحث على عبارات في لغتنا العامية تجري على ألسنة بعض الناس تتضمن تسمية الله عز وجل ووصفه بما لا يليق بجلاله، وهي في الحقيقة من الإلحاد في أسماء الله وصفاته لأنها غير ثابتة وإنما ورثها بعضهم عن بعض، أو لأنها تذكر في غير موضعها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والإلحاد في أسمائه وصفاته أنواع كثيرة منها: تسميته ووصفه بما لم يذكر في الكتاب والسنة.

وقد جرت تلك العبارات مجرى الأمثال واستعملها الأطفال والنساء والرجال، وانتشرت انتشارا واسعا وفشت فشوا كبيرا، ولم ينج منها إلا من رزقه الله علما وفقها.

وأكثر مستعمليها مقاصدهم حسنة وإنما أتوا من جهلهم وتقليدهم أبناء زمانهم.



* من هذه العبارات:

١ ـ «لَـمْلِيحْ رَبِّي»:

إذا مدحت شخصا وقلتَ: فلان مليح يستدرك عليك بعض الناس ويقول لك: «لَمِليح رَبي»، والمليح هو البهيج الحسن المنظر[١]، ويقصد الناس بقولهم: «فُلاَنْ مْلِيحْ»: أنه عاقل متخلق سمح سهل، والمليح ليس من أسمائه تعالى ولا صفاته، وإنما الله جميل، طيب، رفيق، قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ»[٢]، وقال: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا»[٣]، وقال: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ»[٤].

٢ ـ «رَبِّي يْدَبَّرْ رَاسُو»:

وإذا أراد بعض الناس أن يقول: إن الله يفعل ما يريد ويخلق ما يشاء، قال: «ربي يْدَبَّرْ رَاسُو»، أو «رَبِّي عْلَى بَالُو» أو «رَبِّي حُرْ» ونحوها من الألفاظ.

وفي هذه العبارات عدة محظورات:

١ ـ نسبة الرأس إلى الله وهذا لا يثبت في الكتاب ولا في السنة.

٢ ـ يدبر: والتدبير في الأمر لغةً: النظر إلى ما تؤول إليه عاقبته والتفكر فيه[٥]، أما في حق الله فهو القضاء والإنفاذ، قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]، قال مجاهد: يقضيه وحده[٦]، وقال السعدي: «ينفذ الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه وجرى بها قلمه»[٧] ولا معنى لقولهم هنا «يدبر راسو».

٣ ـ نسبة البال إلى الله تعالى وهو غير ثابت، والبالُ لغةً: الخاطر[٨].

٤ ـ وصفه عز وجل بالحرّ وهذا لم يذكر في الكتاب ولا في السنة.

إن العبارة الصحيحة المستقيمة أن تقول كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾ [المائدة: ١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝١٨﴾ [الحج: ١٨]، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، ومكان «على بالو»، تقول: «العليم الأعلم»، ومكان «حر»، تقول: «القادر المقتدر المهيمن العزيز القيوم».

٣ ـ «لَـمْعَلَّمْ رَبِّي»:

وإذا قيل: «وِينْ لَمَعَلَّمْ؟» كان الجواب عند بعض الناس: «لَمَعَلَّمْ رَبِّي» يقصدون بذلك الحاكم المالك، ولكن لا يجوز تسميته بذلك لعدم ثبوته، والمعلم عند المتأخرين لقب لأرفع الدرجات في نظام الصناع[٩]، فقول القائل: «وِينْ لمعَلَّم؟» أي المسؤول الأول عن الشركة أو

المصنع صحيح لا حرج فيه، أما الله عز وجل فهو الربّ الحَكَم الملِك المالك.

٤ ـ «يد الله طْويلَة»:

يطلقـون هذه العبـارة ويريـدون بها أن الله لا يعجزه شيء، ولا يفلت من أخذه أحد، وربما يريدون بها سعة رزقه وعظم عطائه، ولكن هذه الصفة غير ثابتة، فالصواب أن نقول كما قال الله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤]، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج: ١٢]، ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم: ٤٧].

ووصف يديه بالبسط في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، و«البسط»: سعة العطاء والكرم.

٥ ـ «رَبي تْفَكْرُو»:

تقال في حق الفقير إذا رزقه الله أو المبتلى إذا عافاه أو المريض إذا شفاه، ويفهم من هذه العبارة أن الله نسيه، والنسيان هنا خلاف الذكر والحفظ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، قال الله عز وجل: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥٢]، وهو عز وجل سميع بصير عليم خبير يعلم ما كان وما يكون قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾﴾ [آل عمران: ٥]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨]، وهو حي قيوم لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَل اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهارِ وَعَمَل النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ»[10].

ويأتي النسيان في اللغة بمعنى الترك، ومنه قوله تعالى عن المنافقين: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] يعني تركهم، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٦] أي تترك في العذاب[11].

على أنه قد يكون مقصود بعضهم أن الله رحمه وأحسن إليه، فهذا المعنى صحيح لكن عبارة «ربي تفكرو» باطلة.



٦ ـ «اللِّي خْلَقْهُمْ حَارْ فِيهُم»:

وهذه العبارة الشنيعة القبيحة فيها محظوران:

الأول: وصفه عز وجل بالحيرة وهي الاضطراب.

الثاني: وصفه بالعجز والضعف وأنه غير قادر عليهم، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا.

فالله جل وعلا هو القوي المتين العلي العظيم العزيز الجبار، يمهل ولا يهمل ليس لعظمته حد ولا يعجزه أحد، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤].

وإذا كان الله عز وجل قد حفظ السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما أي لا يثقله ـ وهذا لكمال قدرته وعظمته وقوته وعزته، فكيف يعجزه عبده الضعيف الفقير العاجز الحقير، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٥ـ١٧].

٧ ـ «لُو كَانْ اعْطَى رَبي مَانِيشْ هْنَا أو مَانِيشْ هَكْذَا»:

وهذه العبارة فيها عدة محظورات:

الأول: أن قائلها مظلوم مسلوب الحق لا تليق به الحالة التي هو فيها من فقر أو حاجة أو مرض أو نحو ذلك، وفي هذا اعتراض على قضاء الله وقدره.

الثاني: تزكية نفسه وأنه أهل للخير.

الثالث: سوء الظن بالله عز وجل واتهامه بأنه غير عادل وغير كريم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، ومهما أعطى سبحانه وأنفق وأحسن ورزق فإن ما عنده لا ينفد ولا ينقص، قال النبي ﷺ: «**يَمِينُ الله مَلأى لاَ يغِيضُهَا نَفَقَةٌ سحَّاءُ اللَّيلَ وَالنَّهارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ ينْقصْ مَا فِي يَمِينِهِ**»[١٢].

لكنه عز وجل يعطي ويمنع وفق علمه وحكمته ومشيئته، ورحمته وفضله، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر: ٢].

٨ ـ «رَبِّي مَا يَجْبش الخَسَارة»:

تقال هذه الكلمة إذا نجَّى الله عز وجل عبده من هلاك مؤكد كالصبي مثلا: يهجم على النار أو الماء الحار فتلحق به أمه فتنقذه بإذن الله العزيز الغفار، أو يقوم الإنسان قبل سقوط الجدار الذي كان متكئا عليه، فيقولون: «رَبِّي مَا يَحْبشْ الخَسَارَة».

ومفهوم الكلام أنه لو وقع مكروه لأحب الله الخسارة وهذا يتضمن اتهامه عز وجل بالظلم سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف: ٤٩] وفي الحديث القدسي قال الله عز وجل: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا**»(١٣)، فالمصائب كلها بكسب الإنسان وإذن الملك الديان فالمرض والهلاك والموت بإذنه ومشيئته.

إن الله جل وعلا خالق الخير والشر قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢]، وله عز وجل في كل ذلك الحجة الدامغة والحكمة البالغة، بيد أن الشر لا يضاف إليه لأنه يكون في بعض مخلوقاته لا في فعله وخلقه ولهذا كان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ كُلُّه في يَدَيْكَ والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»(١٤).

إن خلقه وفعله فيه الخير والرحمة والعدل والحكمة، وقد تقع أمورٌ لا يحبُّها لكنَّه خلَقها وأرادها قَدَرًا لِحِكَمٍ عظيمةٍ وفوائد جليلةٍ.

٩ ـ «ربي يَعْطِي عْلَى حْسَابْ القَلْب»:

تقال هذه العبارة إذا اطمأن الإنسان بمال أو زوجة أو مسكن يوافق ما كان يتمناه، فيفرح به قلبه وينشرح له صدره وهذه العبارة تتضمن عدة محظورات:

الأول: تزكية نفسه، يعني ما دام أن الله أعطاه هذه النعمة فهو طيب القلب.

الثاني: ما دام قلبه طيبا فهو أهل لذلك جدير به، قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩] وفي الآية تفسيران:

١ ـ إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه ولمحبته لي.



٢ ـ على علم مني بوجوه المكاسب.

قال ابن كثير: «وهكذا يقول مَن قلَّ علمُه إذا رأى من وسَّع اللهُ عليه: لولا أنه يستحق ذلك لما أُعطِي»[١٥].

الثالث: القول على الله بغير علم، فالله لا يعطي على حسب ما في القلب وإنما يعطي بعلمه وحكمته ومشيئته ورحمته وفضله وعدله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [سبأ: ٣٩]، نعم هذا الرزق له أسبابه ومفاتيحه والله عليم حكيم.

ملاحظة: قد يكون ذلك العطاء الذي يتبجح به هذا المسكين استدراجا من الله وهو لا يدري، قال النبي ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي العَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ**» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]»[١٦].

استدرجه: أمهله وأخَّره؛ فإذا أخذه أهلكه.

وليس كل من أعطاه الله فقد أحبه وأكرمه، وليس كل من منعه فقد أبغضه وأهانه؛ بل قد يكون العكس هو الصحيح، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٦ ـ ١٧][١٧]، كلا؛ أي ليس الأمر كما قال.

إن الله جل وعلا يعطي عبده لينظر أيشكر أم يكفر ويمنعه لينظر أيصبر أم يتسخط.

١٠ ـ «رَبِّي يَعْطِي لْـحَمْ لِمَا عَنْدُوشْ اسْنَانْ»:

تقال هذه العبارة السيئة المنتنة إذا رُؤِيَ المال عند الفساق والمبذرين والسفهاء والمتكبرين الذين لا يحسنون التصرف فيه فلا يتقون به ربهم الحق ولا ينفعون به الخلق، بل يضعونه في غير مواضعه المشروعة.

وهذا الكلام طعن في حكمته؛ لأن معناه الحقيقي أن الله يعطي ويرزق من لا يستحق ذلك ويمنع من يستحقه، وهذا ينافي كماله وحكمته ويضاد رحمته وعدله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

إن الله هو الغني الحميد الذي يحمد على كل شيء، يحمد على العطاء والمنع، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

وعطاؤه قد يكون بلاء ونقمة، ومنعه قد يكون رحمة ونعمة، قال وَهْبُ بنُ مُنَبِّه: «لا يكون الرجل فقيها كامل الفقه حتى يعد البلاء نعمة ويعد الرخاء مصيبة»(١٨).

والدنيا مَهينة رخيصة زائلة يعطيها الله من يحب ومن لا يحب ويبلو بها المؤمنين والكفار ويمتحن بها المتقين والفجار.

ولو كان لها وزن عند الله ما أعطى الكافر منها شيئا، قال ﷺ: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى الكَافِرَ مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**»(١٩).

والعطاء والمنع إنما يكونان بعلمه وحكمته ورحمته وعدله كما سبق بيانه.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) «المعجم الوسيط» (٢/ ٨٨٣).

(٢) رواه مسلم (٩١).

(٣) رواه مسلم (١٠١٥).

(٤) رواه مسلم (٢٥٩٣).

(٥) «الصحاح» للجوهري (٢/ ٦٥٥).

(٦) «تفسير الطبري» (٧/ ٨٤)، «تفسير السمعاني» (٢/ ٣٦٦) و(٣/ ٩٦).

(٧) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٤٣٦).

(٨) «المعجم الوسيط» (١/ ٧٧).

(٩) «المعجم الوسيط» (٢/ ٦٢٤).

(١٠) رواه مسلم (١٧٩).

(١١) «الصحاح» للجوهري (٦/ ٢٥٠٨)، «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (٣٥٧، ٥٥٢)، و«أضواء البيان» للشنقيطي (٤/ ٥٥٠).

(١٢) البخاري (٧٤١٩) ومسلم (٩٩٣).

(١٣) مسلم (٢٥٧٧).

(١٤) مسلم (٧٧١).

(١٥) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠)، وانظر: «شفاء العليل» لابن القيم (٣٧).

(١٦) أخرجه أحمد (١٧٤٤٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤١٤).

(١٧) انظر تفسير هذه الآية في «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٨٠).

(١٨) «عدة الصابرين» لابن القيم (١٠٩).

(١٩) رواه الترمذي (٢٣٢٠)، وصححه الألباني لشواهده وطرقه في «الصحيحة» (٦٨٦، ٩٤٣).

من لا يُستَخَفُّ به أبدًا..

قال عبد الله بن المبارك: «من استخف بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخف بالأمراء ذهبت دنياه، ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته».

[«تاريخ دمشق» (٣٢/ ٤٤٤)]

القدوة الحسنة

قال الشيخ مبارك الميلي ـ رحمه الله ـ:

«والقدوةُ الحسنَةُ هي التي تجعلُ لكَلامِ الله وقعًا في القلُوب، ولأوامر الدِّينِ احترامًا في النُّفوس، ولِعِظاتِ المُرشِدين تأثيرًا في المجتمعِ، والقُدوةُ الحسنةُ هي التي تجعلُنا أمَّةَ جِدٍّ وعملٍ، لا شِرذِمةَ هَزلٍ وتَواكلٍ، فإنَّ وقُوفَ المرشِدِ عند حدِّ القَولِ يحملُ المستَمِعَ على الوقوفِ عندَ حدِّ السَّماعِ، وقَرْنُه القولَ بالعملِ يبعَثُ السَّامعَ على قَرْنِ السَّماعِ بالاتِّباعِ، فالقولُ المجرَّدُ يبعثُ على القَولِ المجرَّدِ، والامتِثالُ بالعَملِ يبعثُ على الامتِثالِ بالعمَلِ، وهَذا سرُّ نجَاحِ السَّلَفِ وفشَلِ الخَلَفِ.

[«محاضرة في السرف المالي» (ص٨٣)].

وسيلة لترك الغيبة

قال الذهبي:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا حرملة، سمعت ابن وهب يقول: «نذرت أني كلما اغتبت إنسانا أن أصوم يوما، فأجهدني فكنت أغتاب، وأصوم، فنويت أني كلما اغتبت إنسانا أن أتصدق بدرهم، فمنْ حُبِ الدراهم تركتُ الغيبة».

قلت ـ الذهبي ـ: هكذا والله كان العلماء؛ وهذا هو ثمرة العلم النافع.

[«سير أعلام النبلاء» (٩/ ٢٢٨)]

منزلة الصحابة رضي الله عنهم

قال أبو زرعة ـ رحمه الله ـ:

«إذا رأيت الرَّجلَ يَنْتَقِصُ أحدًا منْ أصحابِ رسول الله ﷺ؛ فاعْلَمْ أنَّه زِنْدِيقٌ، وذلك أنَّ الرَّسولَ ﷺ عندنا حقٌّ، والقرآنُ حقٌّ، وإنَّما أدَّى إلينا هذا القرآنَ والسُّنَنَ أصحابُ رسول الله ﷺ، وإنَّما يريدون أن يُجَرِّحُوا شهودَنا لِيُبْطِلُوا الكتابَ والسُّنَّةَ، والجَرحُ بهم أَوْلَى وهم زَنادِقَة».

[«الكفاية في علم الرواية» (ص٩٧)]

أدب حضور مجالس العلم

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ:

«إذا حَضَرْتَ مجلسَ علمٍ، فلا يكنْ حضورُك إلَّا حضورَ مُسْتَزِيدٍ علمًا وأجرًا، لا حضورَ مُستغنٍ بما عندك، طالبًا عثرةً تُشِيعُها، أو غريبةً تُشَنِّعُها، فهذه أفعالُ الأرذالِ الذين لا يُفلِحون في العلم أبدًا...»

[«الأخلاق والسير في مداواة النفوس» (ص٩٢)]

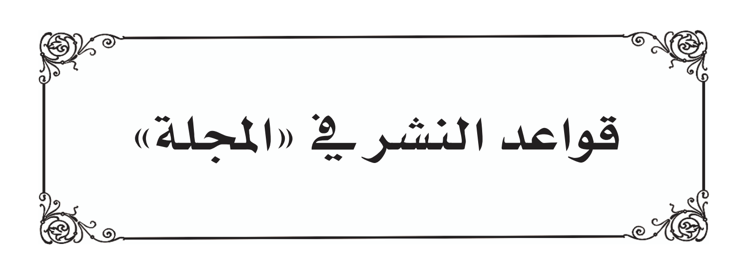
شؤم المعصية

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

«قلَّةُ التَّوفيقِ وفسادُ الرَّأيِ، وخفاءُ الحقِّ، وفسادُ القلب، وخمولُ الذِّكرِ، وإضاعةُ الوقتِ، ونفرةُ الخَلْقِ، والوحشة بين العبدِ وبينَ ربِّهِ، ومنعُ إجابةِ الدُّعاءِ، وقسوةُ القلبِ، ومَحْقُ البَرَكَةِ في الرِّزق والعُمرِ، وحرمانُ العلمِ، ولِبَاسُ الذُّلِّ، وإهانةُ العدوِّ، وضيقُ الصَّدرِ، والابتلاءُ بِقُرَنَاءِ السُّوءِ الَّذينَ يُفسدون القلبَ ويُضيِّعُونَ الوقتَ، وطولُ الهمِّ والغمِّ، وضنْكُ المعيشةِ، وكَسْفُ البَالِ... تَتَوَلَّدُ مِنَ المعصيةِ والغفلةِ عنْ ذكرِ اللهِ، كما يَتَوَلَّدُ الزَّرْعُ عنِ الماءِ، والإحراقُ عن النَّارِ.

وأضْدَادُ هذه تَتَوَلَّدُ عنِ الطَّاعةِ».

[«الفوائد» (ص: ٣٢ ـ ٣٣)]



قواعد النشر في «المجلة»

١ ـ أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.

٢ ـ أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.

٣ ـ أن يُحرَّر المقال بأسلوبٍ يحقق الغرض، ولغةٍ بعيدة عن التكلف والتعقيد.

٤ ـ الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.

٥ ـ أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.

٦ ـ ألا يزيد المقالُ على خمس صفحات.

٧ ـ أن يَذكر صاحبُ المقال اسمَه الكامل وعنوانَه ورقمَ هاتفه، ودرجتَه العلمية إن وُجِدَت.

٨ ـ المقالاتُ أو البحوثُ التي لا تُنشر لا تُرَدُّ لأصحابها.